في أدب الرحلات

نساء العالم

تأليف

محمد ثابت

الكتاب: نساء العالم

الكاتب: محمد ثابت

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

ثابت ، محمد

نساء العالم / محمد ثابت

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٦ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٨١٣ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٥٢٧ / ٢٠١٨

نساء العالم





المقدمة

إليكن يا فضليات النساء وآنساتها أقدم طرفاً من سيرة زميلاتكن في مختلف بقاع الأرض بعد أن طوفت ببلادهن طويلاً ، وخبرت أمورهن عن كثب ، فألفيت من أمرهن عجباً أقصه على مسامعكن فيما يلي، ويقيني أنه سيصادف من بعضكن قبولاً وتقديراً، وسيلقى من البعض إعراضاً وازدراء ولما كنتن – بنات حواء– عماد الأسر وموضع رجائها، كان لنا في هذا الحديث عظات وعبر، وبخاصة في هذا العصر القلق الذي ينذر بانهيار جائح قد يأتي على الحرث والنسل.

فما أحوجنا إلى جهودكن في ضبط البيت وتنشئته الجيل الذي يستطيع الصمود ومواصلة الكفاح وسط تلك العواصف الهوجاء.سدد الله خطاكن وحقق للوطن على أيديكن آمالاً كباراً

محمد ثابت

طرائف عن المرأة

المرأة أسيرة زينتها وجمالها

لقد حرصت المرأة منذ عصر البداوة الأولى، وهي لا تزال تحرص أن تبدو رشيقة القد جميلة الوجه كاملة الزينة وقد ضربت الرقم القياسي في البطولة وقوة الاحتمال بما تعانيه من ضروب العذاب في هذا السبيل حتى أصبحت صاحبة السبق على الرجل في الصبر والجلد.

فهذه قبائل مورو في أعالي السودان تخرق الشفة العليا للفتاة في سن مبكرة لتتسع لقرص صغير من الخشب ولا يزال أهلها يزيدون هذا القرص كبراً كلما كبرت الفتاة حتى تمتد الشفة إلى الأمام امتداداً مخيفاً منفراً. وعند قبائل النوبة من جيرانهم يفعلون ذلك بالشفة السفلى ويستبدلون بقرص الخشب وتداً من الكورتز. ثم تجئ قبيلة سارا فتخترق الشفتين معاً فتمتدان وكأنهما منقار البط. وقد أصبحت هذه من علامات الجمال عندهم وإن كان الباعث الأول على ذلك تشويه وجوه العذارى يوم أن كانت تجارة الرقيق شائعة، وكان رسل العرب يفدون ليحشدوا من بنات العبيد أجملهن سحنة كي يربحوا منهن في أسواق بلاد العرب ومراكش مالاً وفيراً.

ومن أكثر علامات الزينة والجمال ذيوعاً الوشم والتجريح عند أهل أستراليا وميلانيزيا ونيوزيلندة الجديدة فالنساء يخضعن لعمليات جراحية قاسية تشق خلالها جروح في الوجه والجسد والأذرع والسيقان في أقنية ورسوم منوعة ثم تكبس الجروح بمسحوق الفحم النقي لتبدو بارزة. ومن قائل إن مصدر هذا في الأصل محاولة التمييز بين قبيلة وأخرى. فعند الهندوس مثلاً ينقش النساء جباههن نقوشاً تختلف باختلاف الطبقة التي تنتمي السيدة إليها. كذلك الهنود الحمر لا يزالون يزينون بالريش وبالنقش على الصدور وكانوا يأتون ذلك في الأصل عند الحروب لكي يرهبوا عدوهم. ولا يزال الوشم محبباً عند كثير من الشعوب المتحضرة كريف مصر وجهات من أوروبا وبخاصة إنجلترا.

ومن أساليب الزينة المحببة عند شعوب عدة لبس أطواق ثقيلة من النحاس حول العرقوبين وفي الأذرع والرقاب فنساء قبائل "كارن" Karen على حدود بورما وسيام تشوه رقابهن وتستطيل إلى درجة مخيفة بعدد كبير من الحلقات قد تفوق خمساً وعشرين حلقة تعلو الواحدة الأخرى، وقد تلبس أيضاً فوق العرقوبين والركبة وتكون محبوكة لدرجة أن السيدة يستحيل عليها أن تجلس إلا إذا مدت ساقيها أمامها. إلى تلك الحلقات التي تعلق من شحمة الأذن، فقبائل جارو بالهند تثقل شحمة الأذن بعدد كبير من هاتيك فتستطيل الشحمة حتى تضرب الكتف. ومثل ذلك لاحظته بين نساء قبائل المساي في كينيا، ويعتقد نساء جارو أن هذا الحلي يقيهن شر أبالسة القبور الذين يترقبون التهام الروح عندما

يوارى الجسد التراب فإذا ما وجدوا تلك الحلقات تنازعوا فيما بينهن على امتلاكها، وخلال ذلك تهرب الروح وتنجو من شرهم.

ويقال بأن هناك سبباً آخر لحمل تلك الأثقال، فشعوب الهمج ليس لهم نقود معينة لذلك تقوم الثروة بعدد الأطواق التي تلبسها النساء من نحاس أو فضة أو ذهب. كما أن حملها مأمناً لها من اللصوص والمغيرين، وإذا أعيت هذه الأثقال النساء ساعدهن الرجال في لبس بعضها لكن النصيب الأكبر يقع على عاتق النساء إذ يجب أن يبقى الرجال أحراراً خفافاً استعداداً للحروب. وينطبق هذا على نساء البدو اللاتي يتنقلن من محلة لأخرى وراء الكلا. ويعللون شره نساء اليهود في اقتناء المجوهرات والنفائس بالبيئة الرعوية التي نبتوا فيها من جنوب بلاد العرب، فهم منذ نشأتهم رحل لا مقر لهم ولا وطن إلى اليوم، كذلك فإن نساء أوروبا وأمريكا قد شغفن اليوم باقتناء تلك النفائس لوفرة المال في بيئتهم الصناعية ولعدم استقرار قيمة النقود؛ ولذلك وجدن في هذه الوسيلة خير حافظ لثروتهن وثروة أزواجهن، ولو بررن حمل هاتيك بدافع الزينة وحب الجمال. وهل تجد سيدة في الماضي أو الحاضر، سواء أكانت في سن النضارة أم في سن الكهولة، لا يسيل لعابها أو يشرئب عنقها إلى المجوهرات والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة ولا تضحي بالكثير في سبيل اقتنائها والتزين بها؟، وهل أنسى ما سمعته عن بنت مهراجا باتيالا بالهند وأنا هناك تلك التي تلبس كامل حليها في بعض المناسبات الرسمية فلا يكاد يظهر جزء من ثوبها أو جسمها أو رأسها من كثرة ما تحمل من ألوان الجواهر؛ فالثوب كله مرصع والأذرع والسواعد

وأصابع اليدين والقدمين والرقبة وجوانب الأذنين والشفتين والأنف كلها تحلى بالجواهر وحتى الجبهة، والحواجب تحوطها قلائد تكاد تخفيها مما تساوي قيمته نصف مليون جنيها، ويفوق ثقله وزن الأميرة نفسها، بحيث لا تستطيع الانتقال إلا وهي متكئة على وصيفتها.

كذلك رأيت مائدة في الباخرة وأنا في شواطئ ناتال من جنوب إفريقيا يتناول الطعام عليها أسرة من جوهانسبرج وقد تحلت نساؤها جميعاً بمقدار من الذهب وقطع الماس بهرني بريقاً حتى خلتها من كثرتها حجارة رخيصة زائفة. لكني لم أعجب لأن جوهانسبرج مقر أغنى مناجم الذهب وإلى جوارها كمبرلي صاحبة السلطان على أسواق الماس في الدنيا.

وعند الشعوب المتأخرة يقع عبء العمل اليدوي على كاهل المرأة كحمل الماء وفلح الأرض وما إلى ذلك. ذلك لأن الرجل يجب أن يظل سيدا. على أن نساء الطبقة الراقية من الشعوب جميعها حتى المتحضرين معفيين من هذا إذ يجب أن يمتزن على سائر النساء بعلامات تعلن عنهن. ففي الصين مثلاً تصغر الأقدام بلفها بالكتان منذ الطفولة فإذا ما بلغت الفتاة الحلم بدت قدمها صغيرة لا تمكنها من المشي المريح لأنها منعت من النمو ولأن الأصابع الأربعة الصغيرة كانت تطبق تحت بطن الرجل ويترك الأصبع الكبير وحده ينمو مدبباً إلى الأمام فتترنح السيدة ولا تكاد تتزن فوق قدميها اللتين لا تزيدان على سبابة اليد طولاً.

وقد ظل هذا عرفاً واجب التنفيذ إلى سنة ١٩١٢ حين حرمه القانون لكنه لا يزال يمارس خلسة إلى اليوم ولهذا التصرف شبيه عند بعض قبائل إفريقيا الذين يميزون سيدات الطبقة الممتازة بلبس الخلاخيل من المعدن الثقيل لكي يصعب عليهن المشي فيترفعن عن العمل الجثماني تاركين إياه لمن دونهن مقاماً من السيدات، فكأن أغلب ما يمارسه الناس من ضروب الزينة والتجميل إن هو إلا بقية قد لا تمت إلى الجمال بصلة، وكم سخر الغربيون نساء ورجالاً ممن كنت ألقاهم في رحلاتي من تلك العادات التي كانوا يعدونها وحشية ناسين ما تأتيه المرأة الغربية المتحضرة من أساليب تفوق في غرابتها ما يعمله هؤلاء المتأخرون وهل أنسى سخريتي أنا من منظر سيدة وقفت أرقبها في صالون تجميل بباريس وقد ركبت في خصل شعرها داليات من المعدن الثقيل والأسلاك المشتبكة أحصيت منها ست عشرة دالية كلها تقبض على رأسها وشعرها بحيث استحال عليها الحركة وبدت جامدة وكأنها سيدة من الأصنام، وما ذلك إلا لكي تموج شعرها بهذا الكي الثقيل، ورغم ذلك فإن الغربيات يغرقن ضحكاً إذا ما أبصرن بسيدة من البشارية عند أسوان وهي تنفش شعرها وترشقه بشرائح الغاب ليظل بشكله، أو بامرأة من السواحليين في شرق إفريقيا أو الحبشة والماشطة تجدل لها شعرها في ذؤبات وكأنها المسامير الطويلة وهي تظل تحتمل من الألم أشده حتى تتم لها زينة شعرها! فبين نساء قبائل الأمهرية في الحبشة مثلاً يمنح النساء أرضاً يطلق عليها "أرض الماشطة" تزرعها السيدة لكي تستطيع أن تدفع من ريعها أجر الماشطة الشهري الباهظ لأن هذه تقوم بتصفيف الشعر وترتيبه

في فترات منتظمة حتى يظل شكله جميلاً وتستغرق من الوقت مالا يقل عن اثنتي عشرة ساعة متواصلة عندها يبدو الشعر مغضناً مجزعاً، وقد شحذ لدرجة تشعر معه السيدة بألم شديد في الأيام الأولى حتى إذا ما استرخى الشعر بسبب نموه بعد أيام شعرت بالراحة واستطاعت أن تضع رأسها على وسادة النوم وأن تحركها في شيء من السهولة.

وكم سخرت من رءوس بعض أهالي جزائر ميلانيزيا التي بدت مستطيلة مدببة الجبهة وعلمت أنهم يخضعون رءوس الأطفال للضغط بالعوارض الخشبية واللفائف المحكمة حتى تأخذ الشكل المستطيل المحبب في النساء، ثم إنني رجعت فتذكرت تلك العمليات الجراحية الشديدة التي تخضع لها السيدة الغربية لكي تغير من شكل أنفها المعيب، وكيف تحتمل يد الجراح وهي تدخل أجزاء من الشمع الجامد والعاج تحت جلد الوجه وتترك هناك لتقوم ما اعوج من تلك الناحية، وما الفرق بين زينة الأقراط والحلقات تعلق من ثقب في الأنف عند شعوب وادي النيل والعراق والهند مثلاً وبين ما يعلق منها في الأذن في البلاد الأخرى. كل أولئك لا يصح أن تدع مجالاً لأحد أن يسخر من مقاييس الجمال، تلك التي تتغير من شعب لآخر (متحضرًا بدا أو متأخراً) فكلها لا تفتأ تخضع للتطور والتعديل فلا تثبت عند حد معين.

ولا أزال أذكر ما يعانيه نساء لندن وباريس ونيويورك في سبيل الحصول على نحافة الجسم وبالتالي رشاقته، فهن يلجأن إلى "الرجيم" الممض في التغذية وإلى التمرينات الرياضية و"المساج" باليد وبالفرش

الخشبية وبالوكز و"عجن الجسم" كما يقولون ذاك الذي يسبب آلاماً مبرحة. كذلك استئصال طبقات الشحم بعمليات جراحية خطيرة، هذا إلى الاستحمام باللبن والنبيذ ولف الجسم بالشمع أو الوحل الساخن لتنشيط الدورة الدموية وإيقاظ الأعصاب وضمان رخاوة الجلد ونضارته والحد من السمنة المنافية لقواعد الرشاقة.

وأعجب كيف تحتمل السيدة هذا العذاب العضلي – لا بل والعذاب المعنوي – وهي ترقد في حوض مليء بالطين والأوحال، وهي تحس أنها لا شك تمتهن كرامتها أمام نفسها وخادمتها لكن سلطان الجمال يغضي عن كثير. وإني لأذكر قصة لزوجة وجيه مصري ما زال أخصائي الجمال يتعهد جسمها ثلاث ساعات كل يوم بدون انقطاع لمدة سنوات عشر، وأعرف أخريات من الموسرات لا يراهن أحد ممن يقطنون معهن في البيوت في الفترة بين الغذاء والعشاء لأنهن يقضينها مع متخصصين في المساج يعالجون لها الجسم حتى يرق وينعم، وفي حانوت التجميل بباريس تدخل العجوز الشمطاء وتبقى ساعات ثم تخرج وقد أزال الفنان تجاعيد وجهها وسمنة رقبتها بالزيت والمساج والضغط بالشمع وقد اسودت أهداب عينيها بعد الشحوب وذلك بالكي والأصباغ، عولج شعر رأسها بالحناء والحرارة والزيوت والكهرباء، وقد كويت الأجزاء الشاحبة من بشرة وجهها بلصق شطائر الفاكهة الطازجة ساعة أو تزيد، وابيض احمرار أنفها بلبس "الأنف الكهربائية" فترة من الزمان، كل هذا تخرج بعده شابة نضرة البشرة جميلة المحيا!

وفي جهات من إفريقيا تلبس السيدة أسفل الساق أطواقاً محكمة لكي تنتفخ مؤخرة "سمانة الرجل" وتبدو بضا طريا. أما الأسنان فتبرد على شكل مثلث عند قبائل نيام نيام، وفي بلاد سومطرة، كما أن السيدة من أهل شرق إفريقيا وأستراليا تقتلع بعض أسنانها لتبدو جميلة، وهذا بعكس ما نعمله نحن فنعوض ما يسقط بأسنان صناعية.

وينفر أهل اليمن نفوراً شديداً من منظر العضلات المفتولة إن بدت في سواعد السيدة أو في ساقها وفخذيها برغم أنها قد تكون دليل الصحة والقوة. وأمنية الشخص هناك أن يتزوج من فتاة ناعمة "خالية من العظم" كما يقولون ناعمة اليدين والقدمين؛ لذلك تحرص الأم في البيوت العريقة ألا تمشي بناتها خطوة واحدة فلا ينمو الجسم وتغدو ناعمة الملمس طرية اللحم عديمة العظم، والفتاة تفاخر بأن قدميها صغيرتان لا تحتملان وعثاء السير على الأرض وبأن يديها دقيقتان لا تعملان شيئاً وإن لها مائة يد أخرى ممثلة في أيدي عبيدها الذين يؤدون لها كل شيء.

وينقلنا هذا إلى السمنة وضخامة الأجسام فعند كثير من الشعوب يؤثر الرجل في امرأته السمنة المفرطة، وهو ما تذعر له المرأة الغربية اليوم، ويغلب أن تكون تلك الشعوب ممن لا يبيحون للنساء الانتقال والاختلاط وقد يكون للحجاب أثر في ذلك؛ ففي تونس ومراكش لا يزالون يفضلون المرأة السمينة. وقد كان الأمر في تركيا القديمة وعند قبائل غرب إفريقيا ووسطها تعد السمنة دليل الغنى واليسار فكلما كان الرجل زعيماً موسراً طعم نساؤه طعاماً دسماً وفيراً، ولذلك عني هؤلاء

بإظهار زوجاتهن السمان محمولات على الهوادج ليراهن المارة فيؤمنوا بجاه صحابنا وثروته. وبين قبائل إيكوي "E. Koi" في غرب إفريقيا يقيمون للبنات "معالف" يطعمن فيها بسخاء زائد لكي يجدن قبولاً لدى الزعماء الراغبين في الزواج، كذلك تفضل السمنة في النساء عند شعوب الإسكيمو وأهل الصين، وله بقية في نساء مالطة وريف ألمانيا إلى اليوم حيث يجري المثل الألماني بأنه يؤن الأوان بعد الذي فيه يعشق الإنسان العظم دون اللحم!!

أفبعد هذا كله نغمط المرأة قوتها وقد نجحت بجلدها واحتمالها أن تلزم الطبيعة حدها فترجع بسنها إلى الوراء وتحد من جور الزمن على جمالها وقوتها، وذلك الذي قسا عليها أكثر مما قسى على الرجال وعاجلها بالهرم، فقد أصبحت قادرة على رد كيد الزمن بتغيير شكلها وتحوير تقاطيعها واستعادة قواها حتى تبدو أوفر نضارة وأكثر حيوية مما لم يتح لجداتها من قبل! والفضل في ذلك يرجع بالطبع إلى تقدم الجراحة التي أصبحت تستطيع أن تزيل تجاعيد الوجه بشق في أعلى الأذنين ثم بشد جلد الوجه إلى أعلى، وبعد ذلك تخاط جوانب الجرح بإحكام، ومثل ذلك عمليات لإصلاح الأذن، وحتى الثدي يمكن إعادته إلى وضعه الذي كان عليه أبان عهد الشباب. كذلك علمنا أن نجوم هوليود اللائي يفاخرن بطول أهداب العيون قد خضعن لعمليات جراحية غرس الجراح لهن خلالها أهداباً جديدة! فكم من زيجات نعمت بفضل أيدي جراحي الجمال ومتخصصيه؟

على أني أعود فأقول بأن جمال المرأة ليس مقصورا على شكلها وتقاطيعها بل على ثقافة عقلها وسعادة نفسها. فلو أن يد الجراح استطاعت أن ترد للمرأة البهجة والسعادة لكان ذلك كسباً عظيماً فالنفس الباشة المرحة خير للإنسان وأبقى من الوجه المفرط في الجمال.

وكم خدعنا بابتسامات من المرأة في مواقف عدة لكني ذهلت لما أن أيقنت آخر الأمر بأنها كانت ابتسامات مصطنعة متكلفة أفدن منها كثيراً من المزايا على حساب ظني بأنها بريئة وذلك لما أن زرت (مدرسة الابتسامات) في باريس وفيها تتلقى الفتيات منهاجاً صعباً طويلاً في نوع الابتسام واختلافه باختلاف مناسباته، وإذا ما جازت الغادة الامتحان وحملت شهادته كانت أقرب إلى قلوب الرجال سواء في الزواج أو في التجارة وبعض الأعمال المهنية! فلا يصح إذن أن يثق الإنسان ثقة عمياء في مظهر المرح وبشاشة الوجه التي يمتاز بها وجه المرأة في أغلب الأحيان. إذ يندر أن تصدر من القلب فهي نتيجة الصنعة والاكتساب عن طريق التعليم والتمثيل. على أنها رغم ذلك لا تخلو من فائدة لصاحبتها فقد قيل بأن الابتسامة شعاعة من الشمس تطارد سحب الحزن والاكتئاب فإذا ما اعتادتها المرأة ولو عن طريق التقليد أشعرتها بالسعادة الحقة ولو بعد حين فغيرت من طبيعتها الحزينة المكتئبة.

وأعرف شعوباً كثيرة فطر أهلها على البشاشة والابتسام كأهل اليابان وجزائر المحيط الهادي وبلاد الزنوج. وهل أنسى زيارتي مرة لأحد المصانع الكهربائية الكبيرة في كيرتو وكان معي جمع من علية القوم وإذا

تيار الكهرباء يقف فما كان من العامل المختص إلا أن أوصل السلكين بيديه وصعق لوقته فذعرت ونظرت إلى الجمع فإذا بهم تعلو وجوههم الابتسامة التي لا تكاد تفارقم حتى في مواقف الحزن؛ لهذا اكتسبت اليابانيات جاذبية فائقة جعلتهن محببات لكل من يراهن. هذا على عكس نساء الهنود الحمر مثلا اللائي لا يعرفن إلا الابتسام سبيلاً فهن مقطبات الجبين يرعبن من يراهن لأول وهلة وقد جرين على ذلك منذ الصغر لكيلا يؤثر الابتسام على هيبتهن وكبرياء شعوبهن الموروث لذلك كن بغيضات عند الناس جميعاً.

ولقد قيل بحق أن الابتسامة عند الغربية سلاح خداع، لكنها عند الشرقية درع واق مكين! ذلك لأنها كثيراً ما تخدع الرجل فتأسر لبه إلى حين أما عند الشرقيات فلا رياء وراءها ولا خداع.

ثم ماذا تقول عن "مدارس الرشاقة" التي تدرس للنساء مناهج في الهندام ورشاقة الوقوف والحركة ومشية الدلال وفي صعود الدرج وهبوطه في رشاقة الملكات كما يقولون، وفي لف ذيول الرداء الجرارة وفي خلع معطف الفرو ولبسه أمام المجتمعات، وحتى في القبض على مرآة الجيب الصغيرة وعند النظر إليها لإصلاح ما اختل من زينة وجهها أمام الناس. فلكل ذلك قواعد فرضها مبتكرو (الموضة) ووضعوا لها مناهج تستغرق سبعة شهور كاملة في استيعابها لكي تبدو المرأة رشيقة جذابة. ولا أزال أذكر درساً حضرته لعروس كانت تتدرب على لبس ثوب الزفاف وعلاجه، وكان الرداء مخيطاً من مائة وعشرين ياردة من (الساتان) وأربعين ياردة من

الشبك أو المخرمات ومن عشرين ياردة من التل المهفهف. وكم عانت العذراء من كد ونصب حتى عرفت كيف تمشي به وتذهب وتدور عائدة في لباقة وخفة. ولا عجب أن لمعت النجمة السينمائية (جريتا جاربو) منذ أمد بعيد ولا تزال تحتفظ بمكانتها رغم تقدمها في السن فهي سيدة هذا المضمار مضمار الرشاقة وجمال الحركة وخفتها ذاك الذي أكسبها قصب السبق على سائر النجوم في الدنيا.

المرأة ومراسيم الزواج

الحب أعمق العواطف عند الناس جميعاً، لا فرق في ذلك بين ساكني القطبين وشعوب خط الاستواء ولا بين المتحضرين من الناس أو المتأخرين، على أن طرائق التعبير عن تلك العاطفة تختلف اختلافاً بيناً بين أمة وأخرى كما يبدو ذلك جلياً في مراسيم الزواج عند الشعوب المختلفة. فعادة اختطاف الزوجة أو سرقتها بواسطة خطيبها لا يزال لها بقية حتى عند بعض الشعوب الراقية، كأهل أوروبا وبخاصة الجنوب والشرق وفي بلاد العرب وتركستان كما تنتشر في أجزاء شاسعة من إفريقيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا؛ ففي تركستان يقام حفل الزواج عند شعوب القرغير من الرعاة والعروسان غائبان لا يحضران الحفل ولا يعرفان من أمره شيئاً، وتظل العروس شهوراً بعد ذلك مع أبويها تجهز الخيمة وما فيها من أثاث بيديها، وهي تتوقع أن يختطفها الزوج عنوة أو خلسة وعندئذ تصبح زوجة. وفي رومانيا والمجر يمتطي الخطيب جوادا ويرفع بيده علم الزواج يحوطه جمع من أصدقائه على ظهور خيولهم، وما أن تقام حفلة الرقص حتى ينقض على خطيبته فيختطفها ويضمها إليه على الجواد الذي يجري بهما في سرعة البرق إلى مقرها الجديد. وقد علمت من بعض أعراب شبه جزيرة سيناء أن العروس بمجرد خطبتها تهرب إلى الجبال والأودية وتختبئ عن خطيبها، وهو يظل يبحث عنها حتى يعثر عليها بعد عناء وجهد ممض فيحملها إلى بيته، ويحسن أن

تكرر الفتاة الهرب مثنى وثلاث ورباع. وفي غرب كندا بين الهنود الحمر ما أن يقدم الخطيب هدايا الزواج حتى تشن عليه خطيبته حرباً شعواء وهي نافرة وقد ينجم عن هذا النضال جروح وأخطار جسيمة لأحدهما أو كليهما.

أما بين زنوج أفريقية فالقاعدة في ذلك اختطاف الزوجة بالقوة والعنف، وقد يدعى الفريقان لوليمة زودها الفريقان باللحم الوفير وإذا ما بدا الجمع في التهام الطعام انتهز الزوج الفرصة وهجم على عروسه يحاول اختطافها فيهاجمه أهلها ويشبعونه ضرباً ووكزاً فإن أفلتت من يده أعيدت الوليمة مستقبلاً وإلا فاز بها وتم الزواج.

وحتى في إنجلترا لاحظت أثراً واضحاً لهذا في بلاد ويلز حيث لا يزال يحمل الخطيب زوجته من الكنيسة إلى منزله على صهوة جواده، وفي ريف إنجلترا لا يزال يحمل الزوج عروسه من العربة ليتخطى بها عتبة بيته ليلة الزفاف، ولهذا شبيه عند قبائل أولاد علي بمديرية البحيرة في مصر.

وقد يعزى ذلك الكفاح إلى أن الرجل كانت تقع على كاهله مهام الحرب والصيد وطلب القوت، ولذلك كان صاحب السلطان المطلق، ولما كان جاهلاً بخصائص المجتمع من مفاوضة وبيع وشراء كان يحصل على ما يريد عن طريق الأخذ والنهب حتى في الحصول على زوجته إذ

كان يأخذها غصباً وإلا سرقها أو اختطفها عنوة حيث كانت ومهما كلفه ذلك من عناء ومخاطرة.

ومن قائل إن الفطرة أحاطت المرأة بشيء من الحرمة وجانب من الشكوك مما يتطلب القوة الجثمانية في جانب الرجل والخجل والاستحياء في جانب المرأة عند لقائهما كزوجين؛ لذلك فإننا نجد أن أمر الدفاع عن الزوجة لا يوكل إليها هي أو إلى أبويها فحسب بل نجد أن سائر نساء القبيلة هن اللائي يتحمسن للدفاع عن تلك الزوجة لأنه أمر يمس الجنس اللطيف كله. كذلك فإن المرأة وهي الشخص الضعيف تحب أن تفاخر بجرأة رجلها وبسالته، ولذلك استساغت منه ذاك العنف في الجري وراءها، وهل يفهم من ذلك النضال أن روح النفوذ والبغضاء كامنة في الطبيعة البشرية حتى بين الرجل والمرأة.

وتحضرني قصة سمعتها عن عجوز عربية وأنا في الحجاز أؤدي فريضة الحج، وكانت من قبيلة عنيزة ولها بنت فتية على وشك الزواج من قريب لها هو شاب جميل السحنة ظل مختلطاً بها منذ نعومة أظفاره، يقابلها ويتحدث إليها وهذا أمر مباح بين نساء البدو ولأنهن سافرات، فقد وصفت لي العجوز مبلغ العناء الذي عاناه أب الفتاة في اختيار الهجين الذي يبز غيره في سرعة القفز والعدو، وذلك لكيلا يسهل وقوع الفتاة في قبضة خطيبها، ثم كان أن ركبت الفتاة الهجين وأرخت له العنان في سرعة مخيفة والشاب من ورائها على دابته يتعقبها في مفاوز البيداء ومخابئ خيراتها وصخورها، وأخيراً وبعد لأي اقتنصها خطيبها وهي

تهدده بخنجرها وفرائصها ترتعد رعباً وخجلاً، ثم حملها على دابته إلى مخيمه وكان الجمع من الأسرتين: النساء في جانب، والرجال في الجانب الآخر قد أعدوا الحملان المشوية كاملة في عدد وفير وقد حشيت بالأرز والزبيب والتوابل وصغار الطير، وما أن وصل الشاب بها – وقد خضب شعره المرسل بالحناء وزين عينيه بالكحل الأسود فبدأ أنيقاً حقاً – حتى بدأ القوم الطعام وتم حفل الزواج في جو من المرح والهناءة يغبط القوم عليه.

ثم ماذا في أمر الزواج في سن الطفولة ذاك الذي أذهلني وروع مني الفؤاد وأنا أزور بلاد الهند، وقد علمت أن الخطبة قد تتم للطفل وهو لا يزال في بطن أمه وقد يتزوج الكهل طفلة تعد من أحفاده وأكثر هذا ذيوعاً في غرب بنغالة ذاك الزواج الذي يقتطع من الفتاة أسعد فترة في حياتها هي فترة الطفولة البريئة كما أنه يحملها مهام البيت وعناء الأمومة في سن مبكرة كان الأجدر خلالها أن تنال قسطاً من الثقافة والتعليم. وهل أقسى عند الله وأشد ايلاماً عند البرهمي من الطبقة الراقية من أن تظل في بيته بنت من ذريته قد بلغت الحلم ولم يخطب أحد يدها للزواج، إنه يظل يعتقد أن لعنة الآلهة ستظل لاصقة ببيته وأسرته حتى ييسر الله لها الأمر بزوج ولو كهل مسن، ويا ليت الزوجة الصغيرة تشعر في بيتها الجديد بشيء من السعادة، بل على النقيض تخضع لحماتها تسومها العذاب حتى تلد ولداً وعندئذ تمنح نصيباً من الحرية والسلطان في بيتها لا بأس به، وما أقسى ما عانت المرأة في تلك البلاد إلى الماضي القريب يوم كانت تعاليم الدين البرهمي نافذة، تلك التعاليم التي

كانت تحتم نظام (السوتي) وهو حرق جثة الزوجة مع جثة زوجها الذي مات وبخاصة إذا كان من علية القوم، فقد كان كل زوجاته وهن عديدات يحترقن معه، ولقد علمت أنهن بلغن عند مهراجاً راجيو تانا مري سبعاً وثمانين زوجة جلهن لم يبلغن الحلم، وقد أذكين بجثثهن الغضة تلك النار المستعرة في جسد زوجهن ذاك العملاق الكهل الفاني، وقد رأيت في جانب من حوائط القصر طابع يد أولئك جميعاً خضب بالحناء تركنه أثراً لوفائهن وشديد إخلاصهن لهذا الزوج. وكم تساءلت إذ ذاك قائلاً لنفسي: أيعقل أن يتفانى في حبه أولئك جميعاً؟ ألم توجد من بينهن سيدة واحدة لم يجد حب هذا الرجل إلى قلبها سبيلاً، لكنها التقاليد القاسية التي تطغى في كثير من الأحيان. على أنه سرعان ما أجابني صديق هندي مدافعاً عن دينه وعشيرته فقال: إنكم معشر الناس من غير الهنود لا تعرفون للحب البريء ولا الإخلاص النقي من سبيل، إنه من تراث الهند بلادنا بلاد الروحانيات والمعنويات.

ومن التقاليد التي تسترعي النظر تعدد الزوجات عند بعض الشعوب وتعدد الأزواج عند البعض الآخر، والأول أكثر انتشاراً، ولعل معقله قارة إفريقيا والعالم الإسلامي على أنه منتشر بين الهنود الحمر وفي الهند والهند الصينية وجهات من جزائر المحيط الهادي؛ فالزنوج كافة لا يقنعون بزوجة واحدة بل تتعدد عندهم الزوجات حتى قد يبلغن المئات، وعند بعض ملوكهم يصل العدد إلى الآلاف. والزوجة هي صاحبة المركز الممتاز؛ فعند قبائل الياروبا في نيجيريا مثلاً تلقب (بسيدة البيت) أما سائر الزوجات فيلقبن (بزوجات التجارة) لأنهن قد يخضعن للبيع في

الأسواق. أما الزوجات الشرعيات عند المسلمين فلا يجاوزن أربعاً وبشرط العدالة التامة بينهن من جانب الزوج، ولم ألاحظ من المنافسة الحادة أو الغيرة والأحقاد ما استرعى نظري، فالزوجات يعشن سوياً متحابات حتى بين أحط همج إفريقيا. وتحضرني قصة سمعتها من صديق شيخ تونسي وقور كاشفني بأن زوجته الأولى تلح عليه في أن تختار له زوجة ثانية شابة فتية لأنها أصبحت تشعر بالوحدة والعزلة المملة بعد أن زوجت آخر بناتها من زوجها هذا، فهي تفضل أن تأنس بزوجة جديدة مهذبة مثقفة وإلا قصرت مخالطتها على طائفة العبيد والخدم ممن هم دونها مقاماً، هذا إلى أن الزوجة ستقاسمها أعباء البيت ومطالب الزوج..

ويذهب الباحثون في تعليل تعدد الزوجات مذاهب عدة منها أن الدافع إليه زيادة عدد النساء على عدد الرجال وبخاصة بين الهمج ممن تفنى الحروب الكثير من رجالهم، ففي براجواي يفوق النساء الرجال بأحد عشر ضعفاً أعني أن لكل إحدى عشرة سيدات رجلاً واحداً. وحتى الإسكيمو من شعوب الشمال الذين لا يكادون يعرفون للحروب سبيلاً مما يعرضهم للهلاك فيربو عدد النساء ويباح تعدد الزوجات. ومن الأسباب أن الرجل مضطر إلى الابتعاد عن زوجته أبان فترة الطمث، ولذلك حسن أن يتخذ زوجة ثانية وثالثة. وسبب آخر في المرأة بطبيعة عملها وضعف جسمها وإنتاج نسلها تنحل صحتها عاجلاً ويصيبها الهرم قبل أن يصيب الرجل وبخاصة عند الشعوب المتوحشة فتفقد جمالها ولا تمانع في أن يتخذ الزوج معها ثانية وثالثة، هذا إلى الرغبة في النسل

وكثرة الذرية والاعتزاز بالنفر والمال والسلطان مما أدى إلى تعدد الزوجات.

على أن هذه التفسيرات مهما بدت وجيهة في نظرنا تراها المرأة الغربية مستنكرة سقيمة، تلك المرأة التي تنظر حتى إلى الزواج نظرة عملية مادية نفعية، وإني لأذكر مرة وأنا على الباخرة إلى بلاد اليابان أن احتدمت المناقشة على المائدة بين يابانية وأمريكية بهذا الخصوص فختمت اليابانية الحديث بقولها: اعلمي يا سيدتي أننا معشر الشرقيين نفني حياتنا في سبيل إسعاد شخص واحد هو الزوج، أما أنتن معشر الغربيات فتعيش الواحدة منكن لكي تجلب الشقاء لعدد كبير من الرجال!!

أما أمر تعدد الأزواج فشأنه أغرب وأعجب إذ يبيحون للزوجة أن يساهم فيها أكثر من زوج واحد، ويغلب أن يقع ذلك في بلاد الشح والجدب مما كان يحفز الآباء أن يقتلوا بناتهم أطفالاً كما كانت الحال في بلاد التبت وشمال أستراليا والجهات القطبية وشمال بنجاب بالهند حيث يقل عدد النساء عن الرجال بدرجة كبيرة، وهناك تترك زعامة القبيلة للأم لا للأب وهي أكبر النساء سناً. ويغلب أن يكون أزواج المرأة أخوة أو أقارب. ويترك أمر اختيار الزوجة لأكبرهم سناً، فإذا تنحى الأكبر وأقبل على الخطبة الذي يليه سلب الحق من الكبير المتنحي وأصبحت المرأة زوجة لمن هم دونه سناً من أخوته. والعادة ألا يجاوز عدد الأزواج خمسة على أن يختص بالزوجة كل منهم على حدة فترة متساوية يعلق

خلالها قلنسوته أو حذائه على مدخل البيت. ويحتوي البيت في العادة على غرفتين واحدة للزوجة والأخرى للأزواج جميعاً. وفي البنجاب جرت العادة على أن يحمل الأب طفلته المولودة في يد وخنجره في اليد الأخرى وينادي أمام باب الدار: هل من راغب في زوجة صغيرة فيأخذ ابنتي هذه؟ فإن لم يتقدم أحد ذبحت الطفلة وأحرقت جثتها ويقولون بأن هذا هو السبب في نقص عدد النساء عن الرجال هناك؛ مما دعا إلى تعدد الأزواج أما في التبت حيث تشح موارد الغذاء جداً فقد كان من الخير لهم أن يقل عددهن وخير وسيلة لذلك أن يحدد عدد الأمهات فتكون الأم واحدة والأزواج كثيرين.

ومن طريف ما عرفت من مراسيم الخطبة أن الإسباني مثلاً لا يتاح له أن يخالط خطيبته أو يراها من قرب، بل يختلس النظرات من وراء الحجب والقضبان، بينما نرى الأمريكي يعطي حرية في تلك الناحية قد يبلغ حد الإباحة، وفي روسيا وجهات إسكنديناوة، لا عيب على الخطيبين أن يقفا عاريين على شاطئ البحر، وفي بريتاني بفرنسا يتقدم الشاب للفتاة متطوعاً أن يحمل لها مظلتها وهي سائرة في الطريق فإن قبلت هذه الخدمة دعت الشاب للعشاء معها في منزل والدها وتمت الخطبة تلك الليلة. وعند قبائل أولاد ناسل بشمال إفريقيا، وقد شهر نساؤها بالجمال الفتان توفر الفتاة مهرها من احترافها الرقص وهي لا تزال تزيده ذهباً وفضة تزين بها قدمها ورأسها ومتى أثقلها هذا الحمل تقدم منها الخطاب راغبين في الزواج.

وفي بعض جزائر المحيط الهادي تخالط الفتاة الشاب في بيت العزاب فترة قبل الزواج ولا عيب عليها في ذلك، وعند شعوب برما لا يتاح للفتاة أن ترى خطيبها إلا بعد التاسعة مساء، وتبقى معه فترة ووالداها يرقبانهما في الجانب الآخر من الغرفة بكل حذر. وعند أهل جزائر سليمان تتم الخطبة في سن الطفولة بين والدي العروسين ثم تنضم الفتاة لأسرة الزوج لتسكن معها مدة يدرس كل منهما قرينة في خلالها، وفي مالايو يربى الطفلان معاً منذ نعومة أظفارهما إلى أن يتم زواجهما، ولا يعلمان ألا أنهما شقيقان ولا يعرفان أنهما خطيبان إلا ليلة الزفاف، وفي كثير من الأحيان تكون هذه مفاجأة غير سارة لأحدهما أو كليهما.

ومن أعجب ما رأيت سوق الفتيات في رومانيا ففي عيد ٢٩ يونية تجتمع الآنسات في كامل زينتهن على ذروة جبل جاينا **Gaina** ثم يفد الشبان مع آبائهم فيختار كل منهم خطيبته، وفي ألبانيا يتم الزواج ولا يعلن أو يحتفل به إلا عندما تلد الزوجة ولداً لأن هم القبائل أن تنجب أولاداً تعتز بهم ومثل هذا يقع عند قبائل غرب إفريقيا حيث لا تتزوج الفتاة إلا إذا حملت سفاحاً وبذلك يثبت لزوجها أنها غير عقيم.

وفي اليونان يعقد سوق الفتيات بشكل آخر وذلك بإقامة حفلة رقص عامة بعد موسم الحصاد مباشرة يختار خلالها كل خطيب زوجته، وهناك تقدم الهدايا من الطرفين (الشبكة) في نفس اليوم ثم يدعى القسس وتتم عقود الزواج جملة واحدة ويسير الجميع معاً في موكب حافل إلى بيوتهم.

وعجبت في جهات من البندقية حين علمت أن نظام زواج التجربة لا يزال قائماً، فالشاب يتقدم لوالد الفتاة فيخطبها ومتى قبل ظل الخطيب يخالطها ستة أشهر كاملة فإن استمرت العلاقة قائمة بعد ذلك ولو يوماً واحداً أنجزت مراسيم العقد الشرعي. ومثل ذلك يقع بين همج غانا الجديدة فيختلط الشاب بالفتاة قبل الزواج عدة ليال فإن لم ينسجما أعيدت التجربة مع خطيب ثان فثالث وهكذا حتى يتم الاتفاق والانسجام. فأين هذا مما رأيته.

في اليابان حيث يقوم بإنجاز الزواج بين كل زوجين خطاب محترفون يجمعون الخطيبين لأول مرة تحت إشرافهما في مقصف تقوم الفتاة بتقديم الشاي لخطيبها وخدمته ويجب أن يكون قد وافق عميد عائلة الزوج على هذا العقد حتى لا يتعارض مع صوالح الأسرة. وعند شعوب الفين بشمال إسكنديناوة تجتمع العائلتان ويشعل والد الفتاة شمعة فإن تركتها الفتاة موقدة كان ذلك قبولاً منها للزوج وإن أطفأتها دل ذلك على رفضها له، وتتم الجلسة بسلام دون أن يثير ذلك غضباً أو حنقاً. وفي جهات من السويد إذا أكل الشاب والفتاة من رغيف واحد كان ذلك دليل الود والقبول وأرسل الشاب صديقاً لعائلتها يطلب يدها فإن قبل قدم الشاب نفسه لوالد العروس يوم الأحد التالي، وخلال تلك الفترة لا يجوز للخطيبين أن يتصلا ببعضهما ثم تقام حفلة يسمونها يس أيل Yes ales ثم يقدم الزوج لزوجته كيساً من الفضة ملئ بنقود ملفوفة في الورق، وعندئذ تتم مراسيم العقد الشرعي.

ودهشت وأنا في لايلندة وأيسلندة للفرق الشاسع في السن بين الزوج وزوجته فهي أكبر منه سناً بمقدار يسترعي النظر فلا يكاد يصدق المرء أن هذه السيدة العجوز هي زوجة ذاك الشاب النضير.

ومن التقاليد التي أدهشتني استنكار كثير من الشعوب لعادة التقبيل تلك التي تعدها بلاد الغرب آية الإخلاص ودليل المحبة؛ فعند سكان المحيط الهادي وأهل اليابان والملايو يمسحون أنوفهم عند التحية بعضها ببعض: وعند همج أستراليا يلصقون الوجوه بأكملها الواحد بالآخر، أما التقبيل فلا يعرفه هؤلاء، وفي الصين ومنغوليا يضعون الأنف والفم على خد الصديق ويستنشقون الهواء بشهقة تسترعى النظر، وقد لاحظت أن الرقص عند المتحضرين من الغربيين وعند الهمج على السواء يقوم خير أداة يتعرف خلالها الأقران وتتوثق به علاقات الحب ومقدمات الزواج.

ففي جزائر سموا يجتمع الشبان والشابات كل ليلة للغناء والرقص، فالشاب يتغنى بأعمال الشجاعة التي مارسها ويساعده في التغني أصحابه من الشبان ثم يختار أجمل فتاة في نظره ويجتذبها إليه وسرعان ما يطوقهما الجمع وهم يغنون والشاب خلال ذلك يحاول استمالتها بحركاته حتى إذا ما تم ذلك ابتسمت له ومدت ذراعيها لاستقباله ثم يأخذان في الرقص معاً وبعد ذلك أخر الأمر زواجاً مشروعاً كذلك الحال بين آكلي لحوم البشر من أهل غانا الجديدة، ومن العجيب أن علاقات الحب تقوم بين الأطفال عند شعوب البانتون من سود إفريقيا؛ فالبنت

التي لا يقع في حبها عدد كبير من البنين يسخر منها الجميع، والولد الذي ليس له خليلات من البنات يعد ذا علة أو عيب لا بد من علاجه عند الطبيب الساحر، وعند قبائل المساي أشد شعوب كينيا مراسا يجب على الشاب أن يكون مقاتلاً، والمحاربون لا يتزوجون بل يتخذون ما شاءوا من خليلات من الفتيات اللاتي لا يبلغن الحلم يعشن معه طويلاً ويغلب أن يحتفظ باثنتين يغدق على أميهما الهدايا ولا يسرحهن إلى أمهاتهن إلا عندما يبلغن الرشد ولا يضر هذا بسمعتهما في الزواج لأن الأمر لم يخرج عن أن يكون تقليداً مباحاً، وفي جزائر سليمان إذا ما خطبت فتاة لرجل ذي مقام حجزت وحدها في قفص الزواج عدة سنوات لا تكاد تتحرك فيه أو تمد رجليها ولا يباح لها أن تبرحه إلا مرة واحدة في اليوم ويغلب أن يخفر القفص والدها بنفسه، وتزود بمقادير وفيرة من الطعام حتى يتم زواجها.

وبلوغ الحلم أمر عظيم الأهمية في حياة الفتاة وبخاصة عند الشعوب المتأخرة يقيمون له من الحفلات والمراسيم ما يدهش الإنسان وقد لا يخلو من الأخطار الجسام، فعند أحط سكان الأرض وهم همج أستراليا لا بد من فض بكارة الفتاة بمجرد ظهور أول طمث لها، والذي يأتي ذلك امرأة محترفة ولا بد أن يتصل بها بعد ذلك رجل أو اثنان قبل أن تتزوج. وذلك لكيلا يتشاءم الزوج من رؤية الدم المسفوح. وعند أهل جزائر سلبيز يقوم بذلك أب الفتاة بنفسه وفي الفلبين وجرينلنده يقوم به رجال محترفون أو أحد القساوسة.

أما عند شعوب البانتو فتضرب الفتاة بالعصى ضرباً مبرحاً كي تطهر من أخطاء حياتها السابقة. وعند الهنود الحمر تعزل الفتاة ستة أشهر وتكلف بعمل يدوي ثم تصوم أياماً، وفي كندا يفرض على الفتاة أن تحتشم إلى حد كبير لدرجة أن الفتاة إذا صادف أن رآها رجل مرة وهي عارية تستحم فلن يغفر ذنبها إلا إذا تزوجت من هذا الرجل. ولقد اتخذ الشبان هذه المفاجآت المدبرة وسيلة للزواج ممن يحبون ولو كره الآباء ذلك.

ويجب على الفتاة عند الهنود الحمر أن تكثر من الاستحمام لتتطهر ولا يصح لها قبل ذلك أن تلمس وجهها أو شعرها وإلا أصابهما البلى والانحلال، ثم يقيمون الرقص تسع ليال رجالاً ونساء من أجلها تصبح من بعدها امرأة طاهرة، وفي جزائر اندمان تطير الفتاة الخبر لأبويها فينتحبان بكاء وتسرع هي إلى البحر لتستحم ساعتين كل يوم تنزع عنها زينتها وتكسو جسمها بأوراق الشجر وتبقى في حجرة منعزلة ورجلاها مطبوقتان تحتها وذراعاها متعانقتان وتظل ثلاثة أيام لا تذوق النوم ولا الطعام.

وفي جزائر مارشال لا بد أن يدعو الأب رجلاً من علية القوم يتناسب مع علو مركزه ليفض البكارة فإن لم يوجد لجأ الأب إلى وجيه من جزيرة أخرى.

ولعل أقسى ما لاقيته في هذا الصدد عند أهل شمال السودان والحبشة حيث تحمي البكارة بعملية الخفاض الفرعوني بأن يخاط ما حول غشاء البكارة منذ الطفولة وليلة الزفاف يقدم خنجر للزوج يفض البكارة به.

ومن أعجب ما علمته عند بلاد المغرب أنهم يقيمون حفل الزواج ويجتمع الرجال في مجلس الموسيقى والرقص ويقيمون ولائم الطعام. أما العروس فتلبس كامل زينتها وتعزل وحدها في جانب من خيمة الحريم يحجبه ستار وفي الجانب الآخر تجتمع صويحباتها يأكلن الحلوى ويشربن الشاي بالنعناع الأخضر، وما هي إلا لحظة حتى ينسل رجل يتخفى في زي النساء ويزيح الستار ثم يدخل على الفتاة دون أن يثير ذلك اهتمام أحد بل يظل القوم يطربون ويتسامرون وبعد دقائق يعود الرجل وقد أدى رسالته دون أن تعرف شخصيته.

الرقص والمرأة

لم أجد من العادات ما هو ألق بالناس جميعاً نساء ورجالاً من الرقص سواء بين المتحضرين والمتأخرين النساء منهم والرجال الشيوخ والشبان والأطفال، حتى لكأنه علاج طبيعي للروح والأمزجة يسري بيننا مسرى السحر حتى كاد يغلب أثره سحر الموسيقى، يندفع الإنسان ورائه مهما أحاطه من وقار وزانه من احتشام فهو معبر عن المشاعر الأحاسيس والعواطف. وقد أخضعه الإنسان في مختلف البيئات لقيود وقواعد جعلت منه دراسة صعبة تتطلب فهماً ومراناً وجهداً: فتلك رقصة الحرب وهذه رقصة الحب وغيرها رقصة الحداد والموت ثم رقصة السحر والدين والفرح وكثير غيرها. ولما كانت المرأة حياة المجالس وأنسها كان لها قصب السبق على الرجل في الرقص رشاقة وخفة وجاذبية.

ومن أروع الرقصات التي شاهدتها وأقدمها رقصة الفلاح أو رقصة الهورا في رومانيا وبلغاريا والبلقان كله. بدأت الموسيقى الناعمة الهادئة بمزمار النفخ وقام جمع من الشبان في دائرة مشتبكي الأيدي ثم بدأت الخطوة الموحدة من اليسار بضرب الأرجل مرة ثم بوقفة وسكون ثم بخطوة أخرى حتى إذا ما بدأت موسيقى المندولين سكت مزمار النفخ وسمعنا ثلاث نقرات قوية بالمندولين صحبتها ثلاث ضربات من أقدم الراقصين الذين حدقوا بعيونهم في وجوه الفتيات المجاورات وكأنهم يدعونهن إلى الاشتراك وهن يبدين التمنع والتردد والمشاورة فيما بينهن

وإذا بهجمة منهن طوقن بها حلقة الشبان مشتبكات الأيدي ثم اشتدت الموسيقى وقوى ضرب الأرجل وسرعان ما واجه كل شاب غادته في مرح لا يدانيه مرح.

ومثل هذه رقصة "كولو" في سيبريا، في دائرة لا تشتبك فيها الأيدي وأخيراً يمسك الرجل بالسيدة من حزامها ويراقصها وقد أسرفت في لبس المطرزات والمجوهرات وازينت بأكاليل وزهور وتيجان من ورق ملون وهذ الرقصة انتشرت إلى حد كبير بين شعوب شواطئ الأدرياتيك ولقد أغرموا بها لدرجة أنهم أحاطوها بأقاصيص خيالية عجيبة أذكر منها أن زعيماً حربياً وقع في أسر الأتراك – وكانوا إذ ذاك حكام البلاد – وتظاهرت بالموت فأمر الحاكم التركي بدفنه لكن زوجته قالت: تريث فلعله يدعي الموت واقترحت أن توقد ناراً على صدره لكن الأسير ظل جامدا فوضعوا أفعى على جسمه ورشقوا الدبابيس تحت أظافره فلم يحرك ساكنا فصاحت السيدة قائلة: إليّ بأجمل آنسة ترقص الكولو مع رفيقاتها حوله. فما أن سمع الأسير رنين الصنج المعلق حول رقاب الراقصات وحفيف سراويلهن الحريرية حتى ابتسم على الرغم منه وافتضح أمره!!

وقد شاهدت رقصة في جنوب فرنسا الغربي في حلقات يقود كل واحدة منها دليل يبدأ في هدوء ثم يزداد عنفاً فتجري الراقصات وراءه، ثم يقفزن ويتسلقن من الموانع شيئاً كثيراً ثم ينحنين ويدرن بعنف زائد وهن في دائرة متشابكة الأيدي دون أن تفلت يد من الأخرى. وقد

تشتبك الأيدي بالمناديل البيضاء بدل الأصابع.. وفي سردينيا رأينا رقصة شعبية من صفين واحد من الشبان والثاني من الأنسات والأيدي متشابكة ثم يبدأ الرقص مع الموسيقى ذهاباً ورجعة كل شاب نحو إحدى الآنسات، وتنتهي بحلقتين راقصتين مع أنغام الموسيقى الهادئة، ولعل إسبانيا هي سيدة بلاد الدنيا في الرقص الشعبي الجذاب حتى سمعت الكثير منهم يكررون المثل الإسباني القائل: لا كانت الإسبانية التي لم تولد للرقص، وكان الأسبان يصارحونني بأن الرقص لديهم أشبه بصدمة الكهرباء تهز قلب كل إنسان، وقد كنت أنا أكثر الناس استنكاراً للرقص كائنا ما كان نوعه حتى زرت بلاد إسبانيا والأندلس، فكنت أشاهده أينما سرت في الليل والنهار في الملاهي وعلى قارعة الطريق وفي المتنزهات العامة، وكنت أقف ساخراً مستنكراً ثم انتهى الأمر بي أن كانت قدماه تضربان الأرض ورأسي تهتز وفق نقرات الصنج ولعل أجملها رقصة (الفاندانجو)، وفيها يبدأ اثنان متباعدان رجل وامرأة في رشاقة وهدوء والأجسام تدور في رقة والعيون ناعسة، ويرن الصنج عالياً وعاجلاً، ثم ينتهي الأمر بدورة هي غاية في العنف والرشاقة في الوقت عينه حتى خيل إليّ وكأن الراقصة تقذف بها قوة الدفع إلى مدى بعيد ولشدة إعجابهم بها سمعت منهم القصة الآتية: اعتزم بعض البابوات تحريم تلك الرقصة لما كان لها من أثر سحري على أذهان الناس في إسبانيا لكن تصادف أن شاهدها بعض المحكمين من رجال الدين، فبدت عليهم بادئ الأمر علامات الغضب والاستنكار ثم ما لبثت الابتسامة أن بدت على شفاههم

ثم أخذت أرجلهم وأيديهم تتابع النقرات وراء الموسيقى ثم لم يتمالكوا أنفسهم فهبوا يرقصون!!

ومن الرقصات المحبوبة (البوليرو) وهي هادئة وتصحبها وقفات عديدة ثم رقصة "كاوتشوكا" ويؤديها فرد واحد امرأة أو رجل تبدأ هادئة ثم تنتهي إلى دورات جنونية تتمايل خلالها الرأس مرة في كبرياء وأخرى في شبه تكاسل وحركات الصدر والكتفين تسير وفق حركات الأقدام والأصابع، ومن الرقصات الشائعة المؤثرة حزناً رقصة (التشوتا) في موسيقى حزينة وحركة غاية في الهدوء حتى أنها تقام كثيراُ في المآتم ويرقص فيها الرجال والنساء منفردين، ولعل أحب الرقصات عند الجماهير هناك رقصة "سجويدياز" وفيها تغنى الراقصات والراقصون والمتفرجات والمتفرجون أغنيات غرامية أذكر منها ما معناه "ما أن طار قلبي إلى صدرك حتى نتفت ريشه فلم يستطع العودة، وسرعان ما شعر بأنه في بيته الذي سوف لا يفارقه أبداً". وأبدع ما فيها الوقفة الفجائية في اللحظة التي تغير الموسيقى نغماتها وكأن الراقصات أنصاب أو تماثيل جامدة والأذرع مرفوعة وإحدى القدمين في الهواء والجسم منحن والرقصة مختلطة رجل يتقدم وسيدة ترجع وأجمل ما فيها الوقوف المفاجئ والحركة المتجددة السريعة الباغتة التي تدب في تلك الأجسام الجامدة.

وأروع الرقصات اليت شاهدتها في إيطاليا (التارانتيلا) وبخاصة حول نابلي وقد أخذ اسمها من اسم عنكبوت سام ينتشر هناك ولدغته

مميتة لا يشفيها إلا الرقصة العنيفة التي تزيد الدم سرعة وغلياناً مما يساعد على كثرة العرق الذي يذيب معه السم ويدفع به خارج الجسد. ويشترك فيها الرجل والمرأة ويبدأ فيها سلطان الرجل على المرأة فهي لا تفتأ بين فترة وأخرى تركع تحت قدميه ثم تنقلب الحال وتنتصر المرأة فيركع الرجل آخر الأمر تحت قدميها فتأذن له بالنهوض وهي تظهر له من دلالها واخلاصها الشيء الكثير.

ومثلها الرقصة المجرية الشعبية (تزار داس) وفيها ترفع السيدة ذراعيها في محاذاة الكتفين والرجل كذلك والذراعان مشتبكان وتبدأ الخطى هادئة ثم تزيد عنفاً حتى تنتهي بدوران جنوني مخيف يجهد له الراقصون والعازفون. ذلك هو الرقص عند الغربيين وهو يعبر عن الغبطة والسرور والهناءة، تصحبه أنغام الموسيقى.

أما الرقص عند الشرقيين فله معان فلسفية ونواح رمزية دينية؛ فالدراويش يرقصون فيطهرون نفوسهم من الرجس والدنس، وقد رأيت طائفة النقشبندية في مقاطعة قونية بالأناضول يرقصون رقصة دينية رائعة يقيمونها في مولوي خانة على مقربة من مقبرة زعيمهم الصوفي جلال الدين وقت الظهيرة من أيام الخميس حين يجلسون بأرديتهم الفضفاضة وطراطيرهم العالية إلى جوار جدران البهو المستطيل وصف من هؤلاء ينفخون في مزاميرهم ويقرعون طبولهم. ثم يدخل زعيمهم ويجلس في الوسط ثم تبدأ المزامير والطبول وينهض الجميع مشتبكي الأيدي ويهتزون ويدورون في سرعة متزايدة حتى تأخذهم الجلالة الروحية وفي

صيحاتهم شبه حشرجة مخيفة، وقد رأيتها في الأناضول مرة وعند ضريح عمر الخيام في بلدة نيسابور بإيران مرة أخرى. ويمكن لنا مشاهدة تلك الرقصة عند طائفة المولوية في المغاوري بجبل الجيوشي بالمقطم وشيء شبيه بهذا في الشام ويشترك فيه الصبية الصغار، أما النساء فيرقبن الرقص من وراء الحجب وبينما الصبية يرقصون مع الطبل والزمر ينسل جمل عليه سيدة محجبة فيحتاطون بها ثم تشرع في تمويج جسمها ولفه وثنيه وهي ترقص فوق ظهر الجمل والقناع يغطي وجهها ولا تفتأ تركع على الجمل وتكشف وجهها ثم تعود إلى رقصها الأول والناس حولها مرحون وقد يشتركون جماعات في الغناء الشرقي الجميل.

ومن الرقصات الهندية البديعة (ديفالي وهولي) وفيها يرقص نساء المعابد أو (عاهرات الإله) تضرب السيدة منهن برجلها فترن أصوات الجلاجل مع أنغام الموسيقى وجسمها منتصب وذراعاها إلى الوراء معبرات عن بدء نمو الحبوب، ثم الجميع في الوقوف الهادئ ليمثل استطالة العود حتى إذا ما اكتملت القامات وقوفاً أخذت تبسط السيدة راحة اليد وتقبضها فيحس الناظر وكأنها أعواد القمح يموجها النسيم في الحقول.

فالرقص عند الشرقيين يرمز لمعان روحية سامية، وتختلف الرقصة باختلاف الغرض منها أهي للدين أو الحرب أو الفرح أو الحصاد وقلما يشترك النساء مع الرجال فيها بل كل جنس يرقص بعيداً عن الآخر، وللرقص عند قبائل الشعوب المتأخرة أثر قوي في ربط أبناء القبيلة

وتوثيق أواصر الصداقة بينهم بشكل لا يتحقق عن أي طريق آخر وقد يرمي الهمج من الرقص إلى التسلية أحياناً، لكن حفلات الرقص الرئيسية بأنواعها المختلفة ترمي إلى معان اجتماعية تخدم القبيلة بأسرها أما في بلاد الغرب؛ فاللذة الشخصية وسرور الفرد هو الأساس في إقامة الرقص والمراقص، لذلك كانت المرأة العنصر المهم فيه، ويكاد كله يكون رقصاً مختلطاً، أما عند الهمج فيغلب ألا يرقص الجنسان معاً بل النساء.

ولما كان في الرقص استثارة لمختلف المشاعر في النفس بدأ الغربيون العودة إلى الرقصات القديمة التي كادت تنمحي وغالبها يمارس اليوم في الريف وتشترك فيها القرية كلها ليتحمس الناس لعاطفة معينة كأن يستشيروا الحماسة للحروب أو التيمن بالخصب وجودة الانتاج في الماشية والمحاصيل.

ولا يكاد الرقص يجري صامتاً بل تصاحيه نغمات الموسيقى أو الأصوات التي بدأت في الأصل تعبيراً صوتياً لأحاسيس النفس، ثم اتخذت مع الخطى والحركات وقعا رتيباً منظماً، فاتخذ آخر الأمر شكل الأنغام الموسيقية المفرحة في رقصات الميلاد والزواج والمحزنة في رقصات الموت والحداد، وقد يصحبها التصفيق الجماعي بالأيدي؛ ففي ترانسلفانيا تذهب الفلاحات إلى الحقول ويرقصن في قفزات عالية علواً كبيراً استنهاضاً للنبات أن يعلو مثلها. وفي فرموزا يخرجن إلى الحقول ويصوبن في رقصهن حراباً إلى السحاب الثقيل إذا ما هدد بالعواصف العنيفة المدمرة، وفي أستراليا يرقصن في العراء استدراراً للمطر إذا ما

هددت السماء بالجفاف. وفي الصين إذا ما هددهم الوباء خرج الناس جميعاً يتقدمهم النساء في صفوف منظمة يطوفون بالطرقات وهم يرقصون ومعهم الطبول والموسيقى ليطاردوا أبالسة المرض من جو المكان.

ومن الأغراض التي يرمي إليها الرقص في الغرب والشرق الكشف عن مزايا كل جنس للآخر؛ ففي رقصة الحرب يرى النساء مدى شجاعة الرجال وقوة عضلاتهم، وفي رقصة الحصاد عند أهل شرق آسيا وجنوبها يكشف النساء عن جمال سيقانهم وما عليها من وشم وتجريح وجنوبها يكشف النساء عن جمال سيقانهن وما عليها من وشم وتجريح يغري الرجال، هذا إلى خفة حركاتهن ورشاقة أجسادهن، وعند شعوب الأمازون يرقص النساء في جانب والرجال في الآخر متقابلين ليختار كل شريكة حياته. وفي هاواي وهونولولو يجتمع بنات الزعماء ويرقصن لكي يختار أزواج علية القوم منهن زوجاتهم.

وقد بلغ الأمر عند الأستراليين حد البجاحة المعيبة إذ يهجم الشاب خلال الرقص ويحمل الآنسة وهو يرقص بها جرياً ثم يختبئان فترة من الزمن داخل الغابة بعيداً عن الأنظار. ويبررونها بإدخال دم جديد على دم القبيلة ثم يعد ذلك زواجاً مؤقتاً يبرره خطف الزوج لزوجته، وقد يصبح زواجاً ثابتاً مشروعاً إذا ما تم الانسجام بين الإلفين.

المرأة سيدة وخادمة

يعجب الواحد منا وقد ألف سيادة الاب على البيت والذرية إذا ما علم أن الأم هي التي تناط بذلك عند كثير من الشعوب البدوية؛ فهي الشخص الذي يعتمد عليه الجميع في كل شيء حتى أن الذرية لا تنتسب إلى اسم الاب بل إلى فرع الأم، والقيم على الأولاد ليس هو الوالد، بل أن أمر ذلك يرجع إلى الخال. ولا تزال آثار ذلك باقية حتى في مصر، حيث يجري المثل بأن الخال والد. ومصدر ذلك الاعتقاد أن الأم هي الأصل في إنتاج الذرية وليس الأب. وتقوم حول ذلك خرافات كثيرة فعند شعوب غانا الجديدة مثلاً يعتقدون أن الجن أو القوى الخفية تضع الجنين في سلة وبطريقة سحرية يدخل بطن الأم، وبعضهم يعتقد أن الطفل ينشأ في البحر ويدخل بطن الأم خلسة وهي تستحم في الماء، ومن لا ترغب في الذرية منهن لا تنزل البحر أبداً. وهم يعدون الأب دخيلاً أو غريباً على الأطفال. والعجيب أن الآباء هم الذين يرعون الطفل أكثر من الأمهات يطعمونه ويداعبونه ويحملونه وما إلى ذلك من الأعمال التي تقوم بها الأم عندنا في العادة، ولا يقوم الآباء بتمويل العائلة بل الأم هي التي تفعل ذلك هي وأقرباؤها الذين يقدمون للأولاد كثيراً من الهدايا من بينها الكسافا من جذور كالبطاطا هي عماد غذائهم.

ويقع العمل في حقول الزراعة على الأمهات اللاتي يمونَّ العائلة بما يلزمها من طعام، وهن اللائي يقمن بالطبخ وجمع الثمار والأصداف ولا

يلصق هذا العمل بالرجل أبداً. ومرتبة المرأة مساوية لمرتبة الرجل إن لم تزد عليه وهن اللائي يرثن الألقاب لا الرجال ويقمن بعمل الساحرات وهو أشرف الأعمال لديهن، وليس للرجل أي سلطان على المرأة اللهم إلا إذا كشف أنها خائنة فله أن يقتلها، مع أن هذا الحق للرجال قلما يستخدم، وليس للزوجين أن يظهرا حبهما لبعضهما فإذا سارا في طريق ابتعد الواحد عن الآخر.

على أنه لا يجوز أن تبقى آنسة بغير زواج إلا إذا كانت منفرة مشوهة، والسبب في ذلك أن الشخص لا يعتبر عضواً في المجتمع إلا إذا كان متزوجاً وليس لأحد الحق في بيت خاص إلا المتزوج فالبنات في حاجة إلى ذرية والذكور في حاجة إلى الضرائب التي يدفعها لهم أقرباء زوجاتهم، وللرجال غرام بالعناية بجمالهم وزينتهم فهم بين آن وأخر يغتسلون ويدهنون الجسم بزيت جوز الهند لكي يبدو براقاً، ويلبس الرجال تيجاناً وعقوداً من الزهور العطرة وتلك الأشياء هي أكبر المغريات التي يتذرع بها الرجال لكي يأسروا الفتيات ويغروهن على الزواج منهم؛ فإذا كان القبول تبادل الطرفان الهدايا ثم ذهبت الفتاة إلى منزل أهل زوجها، وعندئذ يعرف الناس أنهما قد أصبحا زوجين، وإذا قرب أن تنجب الأم طفلاً انهالت عليها الهدايا من الملابس لا للطفل الذي يظل عارياً سنواته الأولى بل للأم نفسها وفي مقدمتها "عباءة الذرية"، ثم يحدد السحرة يوماً سعيد الطالع لتلبسها حين يجتمع نساء القرية حول مياه نهر أو بئر أو على شاطئ بحر ويحملنها إليه ويأخذ الجميع في الاستحمام عند الفجر ثم يخرجونها ويدعكونها بليف نخيل جوز الهند ويدهنونها

بدهنة ثم يدعك خداها بصدفة من البحر ليزدادا نعومة وبريقاً وترشق الزهور في شعرها بعد تمشيطه وفي النهاية يلبسونها "عباءة الذرية" وليس لها أن تخلعها إلا إذا بلي وبرها. فإذا لم يكن الزواج موفقاً جاز لكليهما الطلاق فإذا صدر من الزوج أرسل الزوجة إلى بيت أمها وإذا كانت هي الراغبة في الطلاق انصرفت وحدها. وإذا رغبا في الصلح تبادلا الهدايا فإن رفضت هذه تحتم الانفصال وبحث كل منهما عن زوج جديد. وإذا ما حظيت بزوج آخر وجب عليه أن يقدم هدية للزوج الأول ثم بدأ يستقبل هدايا "الكسافا" من أهلها وكأنه المهر الذي تدفعه العروس.

أما الأطفال فيتبعون أمهاتهم على الدوام؛ فعند الشعوب التي تسند زعامة الأسرة للأم يرتبط أعضاء الأسرة بأنسابهم عن طريقها لا عن طريق الأب، والوارث الطبيعي لأي رجل هو ابن أخته، وقد تحكم المرأة القبيلة كلها ولها وحدها حق الملكية في كل شيئ؛ فبين قبائل الإيروكواز من هنود أمريكا الجنوبية يسكنون البيوت "المستطيلة" كما يسمونها، وتقسم إلى حجرات لأفراد الأسرة وتحكمهم جميعاً سيدة هي التي توزع فروع العائلة على أجزاء تلك المساكن كما أنها هي التي توزع عليهم أنصبتهم من القوت.. والنساء يتزوجن من عائلات أخرى وكل واحدة هي التي تحكم فرع عائلتها وهي الوارثة الوحيدة لكل الممتلكات ويتبع الأطفال الأم، أما الأب فكأنه غريب على أولاده، وفي كثير من الأحيان يظل الزوج في معيشته مع أبويه ولا يزور زوجته إلا ليلاً.

ولما كان من صالح المرأة أن تمنح سلطانها لرجل تعتز به أبان الحرب والصيد اختارت أخاها لا زوجها لأن الأخير ليس عضواً من أهل الزوجة، وعلى ذلك يكون أخ زعيمة الأسرة أو القبيلة هو الرجل الممتاز فيها. ولأخ الزوجة حق النصيحة لأخته والتصرف في أملاكها والإشراف القوي على أولادها حتى ولو أقام والدهم معهم فإنهم يخشون بأس خالهم ويعدونه صاحب الحق في الأمر والنهي فيهم. ومع ذلك فإن أملاكه ومتاعه لا يرثها أولاده أو أمه بل أولاد أخته.

وأمر الزواج عندهم عجيب فلا بد أن يكون من أسرة أخرى لا من الأقارب، ولشدة أهمية المرأة في الحصول على القوت للأسرة كلها كان حتماً عليها ألا تبرح عائلتها لتسكن مع زوجها لأن ذلك خسارة عضو مهم من أعضاء الأسرة؛ لذلك بقيت وانضم الزوج إليها وإلى عشيرتها وعاش معهم عيشة دائمة أو مؤقتة.. ويقال بأن عادة تقديم الزوجة أو الأخت أو البنت للضيف إمعاناً في إكرامه – كما هي الحال عند كثير من قبائل إفريقية واليابان – إن هي إلا بقية من عادة الزواج المؤقت، إذ أن الزوج في جزائر فيجي مثلاً يزور زوجته زيارات ليلية متقطعة، ولها بقية في شمال إنجلترا حيث يبيحون للخطيبين أن يمضيا الليل سوياً بعد أن ينسل الخطيب إلى بيت الفتاة خلسة. وعند بعض قبائل القوقاز يزور الزوج زوجته ليلاً في الخفاء حتى يولد الطفل الثالث. وعند قبائل "سيري" من الهنود الحمر في كاليفورنيا تسود الأم سيادة مطلقة، فكل عشيرة تعمل تحت إمرة الأم الكبرى ثم تحت بناتها وبنات أحفادها، وبيدها السلطة القضائية والإدارية لدرجة أنهن يقمن البيوت بأنفسهن دون

مساعدة الرجال، وهن يؤوين الأولاد في تلك البيوت ولكن ليس للأب أو الزوج مكان حتى ولا رأى في تصريف شئون المنزل ولا عمل للرجال سوى الصيد والحرب.

ولقد أدهشني ما عملته من "الطوارق الملثمين" في شمال إفريقيا – وهم مسلمون – أن المرأة عندهم ذات سلطان كبير تخرج سافرة ويتعقبون أنسابهم عن طريق الأم. والنساء – دون الرجال – على علم بالقراءة والكتابة لهن شهرة على الرجال في الشعر والأدب ويؤول إليهن الملكية كلها يتصرفن فيها بعد الزواج ولا يتكلفن في بيوت الزوجية شيئاً إذ أن الزوج سيظل منضماً إلى أسرته رغم زواجه هذا. ومن أهم الشعوب في هذا الميدان قبائل "النايار" على ساحل مالايار بالهند ويعدون من الشعوب الأرستقراطية؛ فالأسرة عندهم تتألف من جميع سلالات الإناث، والبيت يتألف من الأم وبناتها. وكان للفتاة منهن أكثر من زوج واحد إلى عهد قريب يتبادلون البيت في فترات متقطعة. أما اليوم فقد عدل ذلك بأن تظل الفتاة بعد الزواج في كنف أمها وتنتقل ممتلكاتها إلى بناتها فحفيداتها من بعدها، ويقولون بأن خير نظام يحتفظ اليوم بسيادة الأم بين قبائل جبال أسام بالهند؛ فالبيت يتكون من الجدة وجداتها وبناتها وحفيداتها ولا ينضم الأزواج إليهن وهي الوارثة الحقيقية للملكية وتورثها لبناتها..

والعجب أن الوريثة هي أصغر البنات سناً، أما إيراد الرجل فيذهب إلى أمه حتى إذا ما تزوج تسلمته زوجته، ذلك لا شك مركز للمرأة تحسد

عليه وينفي عن الشعوب المتأخرة وصمة احتقار المرأة واستعبادها؛ فمركز المرأة في المجتمع هو المحك الذي منه نحكم على مدى تأخر الشعب أو تقدمه.

على أننا كثيراً ما نشمئز من معاملة بعض المتأخرين للمرأة؛ فعند الأستراليين الهمج وهم أحط أجناس العالم اليوم تعد المرأة وكأنها من دواب الحمل تمتهن وتجهد بالعمل وتساء معاملتها فهي التي تقوم بالزراعة والبناء وصنع الفخار والنسيج ودبغ الجلود وضفر السلاسل فوق عملها كخادمة لبيتها وأولادها، أما الرجل فيكتفي بالصيد والحرب. وكثيراً ما نرى السيدة تمشي وهي تحمل سلة كبيرة تتدلى وراء رأسها أو ظهرها وفيها مجموعة من العدد والآلات البدائية التي تلزمها في مزاولة عملها، هذا إلى جوار ما تجمعه من طعام خلال تجوالها. على أن المعاملة التي تلقاها من الرجال أرحم في نظري مما لاحظته في الأحياء الفقيرة في كثير من أمهات مدن العالم مثل لندن مثلاً حيث مطالب الزوج كثيرة والعمل المنزلي شاق متعدد النواحي أما عند أولئك الهمج فالعمل المنزلي قليل يخفف من أعباء المرأة كثيراً ويجعلها أقل بؤساً من كثيرات من نساء الجنس الأبيض.

ولا يظن أحد منا أن الجروح المخيفة التي نشاهدها على صدر المرأة الهمجية ضرب من التعذيب، بل هي نوع من الزينة تأتيه المرأة بمحض اختيارها وخضوعاً لضرورات الجمال. كما أن حمل ولادة الطفل وتربيته أشق وأقسى عند المرأة المتحضرة فكثيراً ما تلد المرأة المتأخرة

أثناء سيرها في الطريق وما عليها إلا أن تلف المولود في قطعة من جلد وتواصل سيرها وهي تحمل الأحمال الثقال..

كذلك فإن المرأة المتأخرة تعجل بالزواج بمجرد ظهور علامات البلوغ وليس لها يد في اختيار زوجها وإذا مات زوجها تزوجت من أخيه لذلك فقدت نضارتها في سن الخامسة والعشرين، وعند الثلاثين بدت الواحدة عجوزاً شمطاء. وكذلك الحال مع شعوب شرق إفريقيا وحوض الكونغو، وبلغ من أهمية المرأة عند الزوج أنها إذا ماتت كان له حق طلب إحدى أخواتها من الآنسات غير المتزوجات، ذلك لأن مطالب العائلة لا تتوافر إلا بكد المرأة وعملها المضني، وعند قبائل الياروبا في جنوب نيجيريا تقع على المرأة مهام البيت والإنتاج بأنواعه. لكن أدهشني ما علمته من أن الزوج قد يرهن زوجته عند دائنه، ومن حق هذا أن يضمها إلى مجموعة زوجاته حتى يستوفي دينه على أنها مع ذلك تستمتع بنصيب كبير من الاحترام والحب والراحة، كما أن الأب قد يدفع بابنته إلى بيوت الرقيق أو الدعارة في اليابان وفاء لدينه الذي يسده بما تربحه من هذا السبيل، ثم تعود لأبيها ويقبل الأزواج عليها لأنها ضحت لإنقاذ أسرتها..

وعند كثير من الشعوب المتأخرة تعتبر المرأة نجسة لدرجة أنهم يعزلون الحوامل عند الوضع أياماً لا يقربهن أحد كسكان صحراء كلاهاري وقبائل تودا بالهند حتى أنهم يحرمون عليهن أن يقربن البقر – وهو مقدس لديهم إذ أنه مصدر غذائهم – خشية تدنيس اللبن عند

الحلب، وعجبت للإباحة التي تمنحها نساء قبائل تودا فلهن حق الاختلاط بالرجال كيفما شئن. والمرأة التي تتزوج رجلاً تصبح بحكم التقاليد زوجة لإخوته حتى الذين في المهد منهم، وبذلك تنجو طويلاً من شقاء الترمل. وعند شعوب الأينو في اليابان يضعون المرأة في مركز ممتاز برغم تأخرهم ويعتقدون أنهن مقربات عند الآلهة، لذلك يمنعهن الأزواج من الصلاة خشية أن يوجهن الدعوات ضد أزواجهن فيلحقن بهم ضرراً لأن الآلهة تستجيب لهن لمركزهن الممتاز. كذلك النساء في جزائر المحيط الهادي يمنحن نصيباً وافراً من الحرية حتى في الاختلاط بالرجال ويشتركن في عضوية المجالس العليا التي تصرف شئون القبيلة.

المرأة والحجاب

ظلت المرأة ولا تزال – وبخاصة في الشرق – تحرم من الاختلاط بالرجال وتعيش عيشة عزلة حتى عن رجلها وفي بيتها بعض الأحيان، فلم تكن تدخل غرفة زوجها الخاصة إلا بإذن منه ولا تشترك في الترحيب بضيوف زوجها اللهم إلا النساء منهم. ولعل تلك العناية بالنساء في الشرق مردها الغيرة الجنسية مما دعا إلى العزلة ولبس القناع. وقيل بأن السبب يرجع إلى اعتبار المرأة أقل من الرجل مركزاً فهي خاضعة لإرادته. ولقد كان من أثر ذلك في القرون الوسطى أن خصص جانب في الكنائس للنساء، ولا يزال هذا النظام قائماً إلى اليوم، وهذا من الأسباب التي دفعت بالكثير من النساء أن يلجأن إلى حياة العزلة في الرهبنة والأديرة، ولا تزال لها بقية في عدم قبول عضوية المرأة في بعض الجماعات إلى اليوم كما هي الحال عند الماسونية.

وتلك العزلة واجبة عند الشعوب التي تبيح تعدد الزوجات إذ يقتضي ذلك أن تختص كل زوجة بجانب منعزل من البيت، وحتى الرجل لا بد أن تكون له غرفة خاصة به، كما هي الحال عند الشعوب المتأخرة؛ فعند شعوب المساي في أوغندة يعتزل المقاتلون من الشبان النساء حتى خصص شعوب ميلانيزيا وغانا الجديدة "بيوت العزاب" للرجال ولا تقربها النساء قط. وفي فيجي يحسن أن يبيت الرجل في منزل العزاب ولا ينام في بيت زوجاته إلا نادراً وإلا حط ذلك من هيبته. وفي جزائر ساندوتش

وهونولولو تخصص بيوت للذكور وأخرى للإناث للنوم وبيوت منفصلة غيرها لتناول الطعام، وذلك إمعاناً في الفصل بين الجنسين، وتختلف السن التي عندها يتحتم هذا الانفصال؛ ففي هبريدة الجديدة يكون ذلك بمجرد الميلاد حين يحمل الولد إلى بيت الرجال ويتعهد أبوه بتربيته ورعايته ويحرم على النساء أن يقربن جهة الرجال وإلا كان الموت نصيبهن، أما الأطفال من البنات فتتسلمهن الأمهات، وإذا دخل الولد بيت أبيه ليأكل حرم عليه ذلك إذا كان أخته هناك ولا يصح لأمه أن تناوله الطعام بيدها بل تتركه له عند قدميه يتناوله وحده، وإذا لاقى أخته في الطريق وجب عليها أن تجري بعيدا عنه لتختبئ، وإن لاحظ وقع أقدامها على الرمال وجب أن يغير طريقه لكيلا يظن أن يتعقبها.

وفي بولنيزيا لا يصح أن يأكل الذكر مع الأنثى حتى، ولا يجوز أن تطبخ الزوجة على نار زوجها، ويا للعار للذي يفعل ذلك فعندئذ يعيره الناس في الطريق قائلين "أأنت إناء تستخدم في تقديم الماء لأمك، وهل تقبل أن تشوي لحماً لتطعم والدتك؟".

ولا يصح للمرأة عند قبائل الزولو أن تذكر اسم زوجها بل تقول عندما تتحدث عنه أب فلان وفلانة من الأولاد. وحتى هنا في مصر يستنكر الكثيرون دفن الزوج مع الزوجة وإن حدث أقيم حاجز في القبر للفصل بينهما وعند الهنود الحمر في كاليفورنيا لا يجوز ضم السيدات مع الرجال في النوادي والجمعيات وفي المراقص والملاهي.. ويقول

البعض أن هذا الفصل بين الجنسين قد يعزى إلى أسباب اقتصادية كما هي الحال عند الشعوب التي تعتمد في رزقها على صيد البر أو البحر.

كذلك تتغاضى المرأة عند قبائل تودا بالهند عن أعمال الرعي وحلب البقر فكل ذلك من نصيب الرجل أما الزراعة فهي مهنة النساء عند جميع الشعوب المتأخرة يحتقرها الرجال ولا يقربونها أما الرعي فشرف لا يناله إلا الرجال. وأعلم في ألبانيا أن الرجال لا يأكلون مع النساء اللهم إلا إن كنَّ عذارى قد آلين على نفوسهن أن يلبثن كذلك طوال حياتهن، وفي سيبيريا لا تأكل الزوجة مع زوجها من طبق واحد، وإلا وقع النزاع بينهما لا محالة.

وأعرف كثيرا من الرجال يأنفون من تناول طعام أعد بيد امرأة خشية أن تكون نجسة. وفي الهند تعد المرأة طعامها وحدها في تلك الفترة النجسة، وفي بعض قبائل شرق أفريقيا يحتم على البنات أن يلبسن برداً يغطيهن من قمة الرأس إلى أخمص القدمين لكيلا يقع نظر الرجال عليهن، ويقولون بأن مصدر ذلك الخوف من القوى الخفية التي ترقب ذلك وتحرمه بالمخالف أضراراً جساماً، ويظهر أن النساء جميعاً ينفرن بطبيعتهن من الرجال إذ ذاك، أعني خلال فترة الطمث وذلك بدافع طبيعي من أنفسهن.

ولا نزال نرى في المجر إلى اليوم تحريم اختلاط الفتيات بالشبان بين قبائل (ماتيوك) ولهن في الكنائس مقاصير خاصة يصلين فيها دون أن

يراهن الشبان. وفي بعض مساجد تركستان يحرم على النساء الدخول خشية تدنيس قدسيتها. ذلك مثل من القيود المريضة التي فرضها الحجاب على المرأة.

ولعل الترمل أقسى من الحجاب عند كثير من الشعوب التي تسوم المرأة الخسف والسوء دون ما ذنب جنت منذ العصور القديمة إلى اليوم، فلقد عثر المنقبون في بعض مقابر أور القديمة على ثمان وستين جثة لسيدات قتلن وهن في كامل زينتهن وإلى جوارهن جثة رجل هو أحد الملوك وأولئك زوجاته اللاتي ضحى بهن يوم مات ودفن إلى جواره وهن أحياء وذلك ليؤنسن روح الزوج في رحلتها إلى الدار الآخرة! ولقد كان مثل هذا متبعاً في بلاد الهند إلى عهد قريب الأجل، ولا يزال يمارس خفية، فإذا مات الزوج قضى الدين البرهمي أن تحرق الزوجة مع جثته، ولقد كان الحال كذلك بين شعوب ألانكا في بيرو إذ كانت زوجات الفقيد يتسابقن إلى قبره ليقدمن نفوسهن ذبائح وضحايا ليعلهن المتوفي والسعيدة هي التي تنال هذا الشرف قبل غيرها، وقد يبلغ عددهن المئات.

وفي فيجي وجهات من الصين وغرب إفريقيا لا يزالون يمارسون ذلك خفية وعن طواعية، ومنشأ ذلك الاعتقاد بأن الحياة بعد الموت تتطلب كل ما هو موجود في الحياة الدنيا، فلا ضير على الزوجة إن كانت مخلصة لزوجها أن تتطوع لمزاملته في حياته الثانية، على أن القوانين الحديثة حرمت ذلك وإن ظل مركز الأرملة تعيساً بائساً ذلك لأن

الميت في اعتقادهم نجس وكل من لمسه أو اتصل به أصبح نجساً كذلك، ومن ثم نبذ الجميع الأرملة ونظروا إليها شذراً فهي في ظنهم نذير شؤم ومجلبة للنجس لا يصح أن يقع نظر الناس عليها وإلا حل بهم البؤس، ولقد شعرت هي بذلك فحاولت أن تمضي حياتها منبوذة بعيدة عن أنظار الجميع لا يقرب منها أحد.

وفي الهند تنحى جانباً من أحد المعابد بعد أن يحلق شعر رأسها وتغطى بالسواد وتخدم هناك حتى تموت، وفي أستراليا إذا مات رجل من قبائل (الارونتا) لطخت زوجاته الرأس والوجه والصدور والبطن ولزمن الصمت المطلق مدة قد تبلغ اثنتي عشر شهراً لا يتفاهمن خلالها إلا بالإشارة بالأيدي والأذرع والأصابع.. أما عند قبائل الياروبا في جنوب نيجيريا فتظل الأرملة لا تستحم ولا تضفر شعرها أو تمشطه ولا تخلع ثيابها إلا بعد انقضاء ثلاثة شهور على وفاة زوجها وتظل طيلة نهارها مختبئة في بيتها ولا يباح لها الخروج إلا ليلاً.

وعند شعوب البابوا في جزائر المحيط الهادي تلازم الأرملة حظيرة زوجها، وهي تغطى بالحصر والأغصان مدة الحداد في شهور ثلاثة لا يراها أحد، ومثل هذا في سواحل غرب إفريقيا حيث تظل الأرامل من قبائل (ميناس) ستة أشهر داخل الكوخ الذي دفن فيه الزوج، وقد لا تدفن الجثة وتظل الزوجة إلى جانبها حتى يبلى اللحم ويظهر العظم. وأول واجب على الأرملة في إفريقيا الشرقية البرتغالية أن تأخذ حمام بخار ثم تحاط بدخان كثيف من نار أوقدت في أكداس من العشب

اليابس ثم تربط خصرها بجدائل الغاب وتزحف وهي تولول إلى داخل الكوخ الذي كانت تقطنه مع زوجها، ثم يهدم الكوخ لتدفن الجثة تحته.

وفي ميلانيزيا تلطخ السيدة جسدها بالطين وتلبس رداءاً من عشب، وفي أعالي الكونغو يلطخ الجسم بالطين الأبيض، وفي الهند تحلق السيدة رأسها وتتخلص من حليها بالهبات وتتنحى عن المجتمعات وتظل خادمة لأهل زوجها.

ويسود الاعتقاد بأن أرواح الموتى تزور الزوجات حيثما وجدن حتى أنه حدث أن المحكمة في مقاطعة جورجيا بأمريكا الشمالية رخصت للزوج الثاني لإحدى الأرامل أن يطلقها، وذلك لأن روح الزوج الأول ظلت تضايق بزياراتها الزوجة والزوج معاً. ومن أعجب ما علمته عن أهالي توجلند أنهم يؤمنون باتصال روح الزوج المتوفي بزوجته ويحرمون على الزوجة ذلك والأوجب قتلها، لذلك تأخذ السيدة حذرها فلا تمكن روح الفقيد من الاقتراب منها فتظل ستة أسابيع بعد وفاة الزوج عارية وتمكث كل وقتها تحت السقف الذي دفنت فيه الجثة ولا تخرج إلا للضرورة ورأسها مطأطأة وعيناها مغمضتان وذراعاها مطبوقتان إلى صدرها وبيدها مضرب لتطرد به الروح إذا ما اعترضتها، ثم لا بد لها من أن تخلط طعامها وشرابها بنوع من التراب ليصبح طعمه منفراً يزهد الروح في تناوله معها، وفي الليل تطلق في المكان بخوراً عفناً قبيح الرائحة وبعضهم يسد جميع النوافذ ويحوطها بالحواجز فإن ظلت الأرملة منزعجة وجب أن تهجر منزلها وتغير لباس رأسها تضليلاً له.

وعند كثير من الشعوب يحرم على الأرملة الزواج ثانية؛ فعند الهندوس يسود الاعتقاد بأن الترمل عبارة عن كفارة لذنوب ارتكبتها المرأة من قبل. وكم رأينا في المعاهد الهندوسية جموعاً من الفتيات في سن الطفولة التي لا تعد ثلاث سنوات يعشن عيشة تقشف بعيدة كل البعد عما كان يجب أن يشب الطفل عليه من لعب ومرح وسعادة، فخلتها مدرسة وإذا بهن أرامل صغيرات مات أزواجهن فقضي عليهن أن يحيين حياة بائسة ويحرمن من الزواج ثانية إلى آخر حياتهن. ويجري المثل عند الصينيات: بأن الوزير المخلص لا يخدم ملكين معاً؛ فالزوجة الأمية إذن لا تتزوج مرتين على أن بعض قبائل جنوب نيجيريا لا يتيحون للأرامل البقاء طويلاً بدون زواج فبمجرد انتهاء أيام الحداد يقمن جماعات إلى النهر وهن يولولن والرجال من حولهن يطلقن الأعيرة النارية في الهواء وهناك يغتسلن ويغسلن ملابسهن ثم يعدن إلى بيوت الأزواج الجدد.

وعند أهل فرموزا بالصين يقام المأتم عند الوفاة تسعة أيام توضع خلالها الجثة على مقربة من نار هادئة حتى تجف تماماً وتترك في العراء ثلاث سنين لا يبقى بعدها من الجثة سوى العظام، وعندئذ يقام مأتم جديد يسمونه (المأتم الجاف) تمييزاً له عن المأتم الأول الأخضر ثم توارى العظام قبراً وتصبح السيدة حرة تتزوج ممن تشاء ولا يزال الأرامل عند الشعوب الغربية والمتحضرة يبالغن في الحزن ولبس شارات الحداد طويلاً، على أن الاتجاه الحديث أخذ يرمي إلى إعفاء المرأة من عبء مظاهر الحداد وطول مدته وكفاهن الحزن القلبي الذي تحسه المرأة إذا

مات عنها حبيبها ورفيق حياتها وحتى ألوان ملابس الحداد السوداء والحرمان من وسائل التزين والترفيه في إقامة حفلات الجنائز، وما إلى ذلك مما يزهد النفوس في العيش قد خفت حدته.

وهل أنسى موقفي وأنا في الباخرة وسط المحيط الهندي فنجري ونتساءل وإذا به المستر قد مات فجأة وألقيت جثته في اليم ساعة غروب الشمس وزوجته وابنه يشهدان هذا المنظر المؤثر. وكم كانت دهشتي كبيرة حين جلسنا إلى مائدة العشاء تلك الليلة وقد جلست معنا الزوجة والابن وأكلنا جميعاً، وفي المساء المتأخر بدأت حفلة السمر وإذا بأفراد عائلة المتوفي يشاطرون في الرقص والمرح وكأنه لم يقع لهم شيء

المرأة ملاك وشيطان

للباحثين في المرأة وأخلاقها قولان أولهما أنها كيسة لطيفة، وثانيهما أنها جافية عنيدة فالرجل منا إذا ما أصابته يد الحدثان وأناخت عليه بكلكلها الأيام يلجأ إلى المرأة يطلب عطفها ومشورتها، ومع ذلك فهو يقول أن النساء قاسيات الطبع عنيدات. فما الباعث على هذا التناقض؟

لا شك أنه النفور الموروث بين الجنسين فلقد جرت العادة في بعض البلدان أن يقتنص الشبان عرائسهم اقتناصاً، وفي ذلك دليل بين على تأصل العداء بين الرجل والمرأة؛ فقد كان الخاطب في نيوزيلندة يهجم على الفتاة التي يريدها له عروساً ويحتلها بعيداً وهي تمانع وتعارض تارة باللكم والرفس وطوراً بالضرب والعض.

والعذراء العربية تحصب خاطبها بالحجارة وقد تجرحه، ومتى دنا منها تعضه بأسنانها وتلكمه بيديها وتخمشه بأظافرها، وهي تكاد تذوب وجدا إلى قربه وتود أن يفوز بأسرها. والمرأة الأوروبية لا تسير على هذا الأسلوب القهري ولكنها تبدي شيئاً من الغضب والخوف ولا يخلو أمرها من تعذيب الراغبين ولو بالصد إلى حين.

وكانت المرأة الإسبانية يسرها أن ترى خطيبها يجلد نفسه بالسياط حتى يسيل دمه، وكان من أساليب الكياسة واللطف التي يلجأ إليها الخاطب أن يقف تحت نافذة محبوبته ساعات طوالاً يوماً بعد يوم إلى أن ترمقه بالنظر وتبتسم له تعذيب الراغبين فيهن لإظهار قدر الحب الدفين في صدورهم، من هذا المصدر، نشأت غريزة الميل إلى الأذى عند النساء وآثارها ملموسة حتى بين الأطفال من بنين وبنات. فلقد كانت الشابات تتعمدن مناوأة الشبان ولا سيما المعارف والأصحاب والذين ملكهم الحياء وسادت فيهم عاطفة الأدب كانوا أكثر عرضة لطعن الفتيات. وهذه القسوة خصيصة بالنساء ولا يجرؤ رجل أن يفعلها لأن للنساء من جنسيتهن درعاً يقيهن شر التعنيف والملام.

ويبلغ ولع الفتيات بتعذيب الشبان أشده متى آنسن فيهم الحب الصادق والولاء المقيم. وهل ينسى أحدنا القسوة النسائية في معاملة الرجال ولا سيما الأطفال؟ فلا شيء أشد من كراهة الضرائر لأولاد أزواجهن فقد بلغت كراهتهن لهم إلى حد الضرب والحرق والتعذيب والقتل. أما الرجل فإذا ثارت ثائرته فإنه يقسو ولكن إلى حين وبغير قصد سابق في حين أن المرأة تدبر وتحتاط وتقدم على الأذى لا عن تهيج مفاجئ بل عن سبق تدبر وإمعان وهي عالمة بما ينتجه ذلك العمل من المسئولية والخسران، فتأتي ما تأتيه وهي رابطة الجأش مالكة الحواس.

ولعل أعظم ما تهتم به المرأة الرجل هو أنه مسرف في حب الذات مع أنه في استطاعته أن يعمد إلى البطالة والكسل ويتوقف عن الكد

والعمل كما كان يفعل أجداده السالفون، لكنه لا يفعل ذلك لأنه يؤثر زوجه وأولاده على نفسه ولو آثر نفسه عليهم للزم الدار ولم يتوفر على الجهاد الليل والنهار. ويدعي النساء أنهن مسلوبات الحرية مهضومات الحقوق ويقلن إننا لا نستطيع أن نعيش كما نهوى ونشاء لأن الرجال يستأثرون بحريتنا ويحملوننا على الخنوع لإرادتهم. لكن هل يتأتى للرجل أن يعيش حراً كما يهوى إذا كان معسراً أو متزوجاً؟

إن الذي يسرح بصره في أحوال الناس المعيشية لا يجد لأنانية الرجال المزعومة أثراً بل على النقيض من ذلك إذ يجد آثار أنانية المرأة مجسمة ملموسة. ولقد توجه المرأة للرجل تهمة الخشونة ولكن إذا كانت الخشونة صفة لازمة للذكور فالثرثرة خلق ملازم للإناث.. كذلك فإن المرأة تزعم أن الرجال أطفال كبار فإذا سلمنا بذلك فإنهم لا يفوقون النساء في هذا، والنساء أولى بأن يوصمن به، فهل يدور حديث النساء إلا على محور المودة والأزياء والتزين ببديع الحلى وفاخر الحلل، طف بالأحياء المأهولة بالمتاجر وقف بأرصفتها أو راقب المارة الذين يزحمون الطرقات لاستعراض الأزياء والمودات والتحديق في الخواتم والسلاسل، والدمالج والأساور، وكل حجر كريم ترى عدد النساء يربو على عدد الرجال أضعافاً مضاعفة. والنساء تشكين الحدة في الرجال وقلة الصبر والاحتمال، ويقلن إن معاشر النساء أوفر جلداً وأعظم احتمالاً وأصبر على الشقاء ومقاساة الشدة والأنواء، ناسيات أن المرأة تفوق الرجل في النزوع إلى الهياج وإثارة عجاج الفتنة، ومن يزر ملاجئ المجانين

ومستشفيات البله والمعتوهين يرى أن هياج الإناث وإن خف وطأة عن هياج الذكور فإنه أطول مدة وأبعد أثراً.

ونحن نعلل ذاك الصخب واللجاج في المرأة بأنها تعودت تقريع أطفالها وتعنيف خدمها وحشمها، ولذلك ألفت الإيذاء باللسان واعتادت ألفاظ التوبيخ والملام، كذلك فإن ترديد الكلام يسري عنها عبء أعمالها المضنية، كما يرتاح الرجل إلى الحلف وأغلاظ الأيمان إذا ما اهتاج أو بلغت به حدة الغضب مبلغاً. وخير الذرائع لتسكين ثائرة المرأة الصاخبة مجارتها على ما تقول والتسليم لها بما ترتئيه فإن لم يفد ذلك فلا سبيل إلى الإرضاء والتهدئة إلا أن تلوذ بالهرب وتترك لها الميدان.

والمرأة أكثر انفعالاً من الرجل وهذا يتبين من ميلها إلى الدين وغرامها بالتشخيص والتمثيل حتى لقد شاع أنها أشد ورعاً من الرجل لأن المؤثرات الدينية ولا سيما الطقوس التشخيصية تستهويها وتخلف في نفسها أثراً عميقاً.

وكلنا يعلم أن حب الرجال صادق لا يعرف التصنع، أما المرأة فأقدر على المداهنة والرياء وتصنع الحشمة والأدب لأنها تفوق الرجل في ضبط العواطف والأهواء، ولقد لقنت الفتاة منذ الصغر أن تواري هذه الانفعالات النفسية، وعندي أن جمود النساء وعدم إظهارهن لعواطفهن نحو الزوج هو بعض علل الشقاء في الحياة الزوجية، وشواهد الأحوال تنكر على المرأة سعادة الحب لمجرد رغبتها في الزواج وفرحها بالأمومة،

فإذا كانت تتزوج فلكي تستريح من أعباء الحياة وتلقي همها على كاهل من يسعى لراحتها وراحة أولادها، وعليه فالرجل آلة في يد المرأة هيأته الطبيعة لخدمتها والقيام بقضاء حاجاتها.

ولا ريب أن اختلاف مزاج الزوجين هو سبب النفور الذي يكدر صفو حياتهما، ولو أن النساء أدركن أمزجة رجالهن وجارينهم على أهوائهم لامتنع الشقاق بين الإلفين، ولذلك نرى كثيرين يحبون إطالة أجل الخطبة لأن من مزاياها إطراح الكلفة والظهور بالمظهر الطبيعي وذهاب الرياء والتصنع، ويرغب جل النساء في إطالة زمن الخطبة لأنهن يعتقدن أن الإخلاص والود يكونان على أبهج ما يرام قبل الزواج لا بعده.. ولشد ما يؤسفنا أن نرى نساء العصر الحاضر أكثر أنانية وأشد انتقاداً للرجال، ولقد كان الزواج في العصور السالفة غاية الغايات لا فرق في ذلك بين الذكور والإناث.. أما الآن فقد أصبح الامتناع عنه ضرباً من ضروب التأنق وفناً من فنون (المدير نزم) فالسواد الأعظم اليوم يحسبون حساب تلذيذ النفس بالعيشة الفردية ويسوفون أمر الزواج، وقد يكون الباعث الأعظم على تأجيل الزواج هو الباعث الاقتصادي.

فالسيدات الآخذات برقاب المدنية والمودة يسرفن في مطالبهن إسرافا فاق المعقول؛ لذلك أحجم الجنسان عن الزواج طوعاً واختياراً، وقد كانت جداتهن يتزوجن بأقوام لم يبلغوا درجة من الغنى والوجاهة وكن يقنعن بالسكنى في الشوارع المتواضعة والمنازل التي تعدها فتيات اليوم حسباً ضيق الخناق. هذا وكسب العيش في عصرنا يقتضي الظهور بأفخر

المظاهر والاتشاح بوشاح الغنى والثراء لأن الناس لا يقيسون أقدار الرجال بما لهم من نبوغ وعلم بل بما عندهم من منزل وأثاث نفيس ورياش..

وفي ظني أنه لا بد لبلوغ الغاية من السعادة في الزواج أن يتناسب العروسان خُلقاً وخلقاً، وينبغي لتعميم هذا الزواج السعيد أن يلم الزوجان بأخلاق بعضهما البعض فتعلم النساء رغائب الرجال ويعلم الرجال حاجات النساء حتى يتسنى لكل واحد منهما أن يجد إلفاً ورفيقاً يبوح له بسره ويطلعه على مكنون أمره، ومن العدل أن نقر بأن المرأة منهوكة الأعصاب متعبة القوى فيجب على الرجل إذن أن يفسح مجالاً لتنفيس كربتها..

لكنا إذا قلنا أن من العدل عدم تضييق الخناق على الأزواج المنهوكات القوى لتفريج ما بهن من البلوى فما عذر اللاتي يعشن عيشة الترف والنعيم ويقضين العمر في اللهو والدعاية والجذل المقيم، والمداراة في المساكنة الزوجية واجبه لأن المرأة شريك الرجل وإلفه، ورياضة النساء لا تقوم إلا بدرس طباعهن حق الدراسة، وليعلم الرجال أن إظهار بعض القسوة في معاملة النساء تفيد في سياسة النزقات منهن واللاتي أصبن بهستريا الكلام، وقد دلت شواهد الحال على أن بعض الذين اشتدوا في معاملة النساء فازوا منهن بحب أكيد وعهد وثيق أكثر مما فاز به أولو العطف والرحمة..

والمرأة نفسها تحب من بعلها هذه السيادة وذلك الاستئثار، على أنه ينبغي للذي يظهر الشدة والحزم أن يكون رقيق القلب حسن النية لا يحمل حقداً ولا يضمر سوءاً، ولتعلم أن النساء كثيرات المرح والانتقال لا يعجبهن العجب ولا يرضين بالبقاء على حال فما يسرهن في الصباح قد يسؤهن في المساء، فإذا ما لمست من عروسك قلة العناية وعدم الاكتراث والرعاية فسارع إلى المهاجمة أو اظهر قلة الاهتمام لها فستجري معك حتماً على هذا الأسلوب، ولا تأخذك الشفقة العمياء إذا ما كانت حروناً بل تعفف ولا تستعطف أو تظهر الضعف بل أدر ظهرك غير مكترث وثق بأنها ستثوب إلى رشدها وتلين.

وفتاة اليوم قد كسرت حواجز التقاليد المنزلية وثارت على قيودها فرغبت عن العبودية واستمسكت بحبال الحرية ورأت الاستقلال ثمرة حلوة المذاق فمالت إلى الإفلات من فخ الرق المنزلي إلى جو العالم الفسيح وراقها أن تكون صناع اليدين تكسب عيشها بعرق الجبين فلما استوثقت من نفسها بالقدرة على ذلك احتقرت المزاعم القديمة القائلة بأن الزواج هو الغرض الوحيد الذي ترمي إليه الفتاة، فإذا طعن الرجال على المرأة بالقصور والتقصير ورموها بعجز في الإدراك والفهم فقد جهلوا أو يجهلون أنهم هم الذين كانوا حجر عثرة في سبيل رقيها دهوراً وأعواماً فألقوها في جب من الجهالة وحالوا بينها وبين ما يخولها إظهار تلك المواهب، ففي النساء كواكب ذات بهاء، وأقمار بادية الضياء، وإنما منعها من إظهار ما لها من مناقب ذلك الاستبداد البالغ درجة الاسترقاق والاستبعاد فحرمت من أحسن ما يؤهلها لتكون أم الجيل

القادم بأكمله. وهي اليوم تقول أنها راغبة عن الزواج نازعة إلى حياة الاستقلال لأنها لا تعد المتزوجات إلا متاعاً يشرى ويباع حيث تساهم في إنشاء نواد يجتمع فيها الجنسان يتبادلان الحديث فيساعد هذا الاختلاط على الحد من خشونة الرجال وعلى تهذيب أذواقهم، وتتيح لهم الفرصة لدراسة أخلاق النساء على حقيقتها كما أنها تقلل من فتور المرأة وتحد من روح التنافر السائد بين الفريقين، فالرجال أميل إلى الحرية والدعاية في الكلام ولا يدعوهم إلى نهج مناهج الرزانة والاحتشام إلا اجتماعهم بالنساء، وكذلك النساء اللائي يرغبن في الثرثرة والرياء وإيذاء بعضهن بقوارص ولواذع الكلام لا يجدن في تلك النوادي لهذا الهراء سبيلاً.

ولقد بلغ التنافس بين الرجال والنساء في كسب العيش والجري وراء الرزق أشده فتكالب النساء على المصالح والمتاجر يطلبن عملاً بأجر زهيد فانتقل النساء من الخمول إلى العمل ومن المطالبة والاعتماد على الرجال إلى الجري في مضمار التحصيل والاستغلال فكان ذلك برهاناً على أن المرأة ليست بذلك المخلوق الضعيف الذي كان فيما سبق يعيش كالعلق يمتص دماء غيره، والحق أن علة الاضطرابات التي تصيب النساء ناجمة عن البطالة وقلة العمل ولو اشتغلت أيدي النساء وعقولهن بنافع الأعمال لازددن صحة ونشاطاً ولذهب عنهن القلق والضجر وأرى أن المترفات اللواتي لا تروج بضاعتهن إلا بترضية أزواجهن واستجابتهم لرغباتهن أشبه شيء بالعلق في أبدان بعولتهم، ولم أر في زماني أجمل وجهاً وألطف ذاتاً وأصح بنية من نساء شمال البرتغال

اللائي يقضين معظم أوقاتهن في فلح الحقول والحدائق والعناية بالماشية والأنعام.

وعندي أن الزوجة التي تعول على الرجل في جلب الطعام واللباس والصيانة لا تفترق عن المتسول الذي يلتمس الخبز التماساً ويطلبه من أيدي المارة بالاسترحام والاستعطاف، لأن هذه الزوجة ومثيلاتها لا هم لها إلا التوفر على التزين باللباس والتحلي بالدر النظيم وكل حجر فاخر كريم لتجذب الرجل إليها وتستميله بسحر عينيها، وإن كنت تريد لزوجتك الصحة والعافية وتروم لنفسك الخلاص من ضربة الصخب القاصمة فاجعل مدار سياستك معها على قاعدة العمل واخلق لها واجبات تلهو بها، وإني لأذكر صديقي الذي قال لي يوماً: لما كان لزوجتي أولاد كانت راضية مسرورة سعيدة، وكانت في شغل شاغل عن الهموم بعيدة عن الاستياء والوجود. أما الآن وقد كبر الأولاد فهي غير راضية عن الحياة لا تجد فيها لذة أو سروراً، وكل إنسان يروم لزوجه العافية والنشاط والسرور والانبساط فإذا رأيتها وقد حلت بساحتها الأكدار فحثها على العمل فلا عيب أن تقوم بخدمة الحديقة وغسل الموائد والثياب لأن العمل مجلبة للصحة، والكسل مدعاة للفتور.

وإني أعرف سيدات تشع أنوار الصحة من جباههن لا لشيء إلا لما أن استغنين عن بعض الخدم وقمن بما عليهن من واجبات، ويؤسفنا أن تكون المرأة المتوسطة الغنى هي التي تميل إلى البطالة والترف فتسوء طباعها وينقبض صدرها، وكم رغبت إلى اللاتي نلن شبعا وريا، وكساء

ودفئًا، فأقعدتهن السقام وبرحت بهن آلام المعدة المكتظة بالطعام وساورتهن هموم النورستانيا، كم رغبت إلى أولئك أن يشتغلن بتنقية الحشائش في الحديقة ليذهب عنهن السأم وفساد الصحة واعتلال المزاج، وكلنا خبير بأنه متى اعتلت الصحة ساءت العشرة.

والحق أن النساء اللائي يدللن كالقطط ويعودن التأنق والدفء لا تخلو رؤوسهن من الآلام والسقام وأبدانهن من الأدواء والأمراض، ومن حاز واحدة من هؤلاء في داره فقد قبض على الشقاء براحتيه وأمسك البلاد بكلتا يديه.

ولا ريب أن بعض العقلاء جار عليه جمال النساء الساحر وضياء خدودهن الناضر، ولكنهم لقوا من جراء اختلاف المشرب الأمرين وعاشوا عيشة النكد، وكم من فتى اقترن بغانية هي أشبه بالدمى منها بالنساء وكان في ظنه أن يلهو بها ولكنه ندم على ذلك، وظل يندب حظه وسوء فطنته لأن المرأة الجميلة التي لم تهذب التهذيب الكافي أصعب قياداً من المهذبة غير الجميلة التي تقوم على خدمته وتبذل مهجتها في سبيل راحته، وإننا كثيراً ما سمعنا أن المرأة هي عدوة نفسها لا الرجل عدوها، وهي التي تخلق الآلام لنفسها، وهي تميل ميلاً شديداً إلى كشف ما بداخلها والبوح بمكنوناتها، وذلك الميل يعذبها عذاباً شديداً ولا سيما إذا لم تجد من تبوح له بذلك، فلقد اعتادت – وبئس ما اعتادت – أن تقذف بكل ما في باطنها من رغائب وأحزان وأماني حسان لأنهن عاجزات عن تفريج أزماتهن فصعب لذلك إسلاس قيادهن وترويض جموحهن.

من روائع بنات حواءِ في مختلف الأقطار

الفرنسية

إن الحديث عن النساء عذب شائق يروق الكثيرين، ومن أجدر بذلك من الفرنسيات اللاتي يسترعين النفوس ويستهوين القلوب وهل يذكر عن نساء الدنيا شيء لا تكون فرنسا في طليعته؟ لكنا إذا تكلمنا عن الفرنسية وجب علينا أن نفرق بين الباريسية وبين سائر نساء فرنسا فالفئتان متناقضتان وكأنهما بنات شعبين مختلفين شكلاً وطبعاً حتى خيل إلي أن باريس – كرجالها – دخلاء على فرنسا، فالباريسية سيدة العالم بحق في التأنق والتبرج والزينة وإن أعوزها الجمال إلى حد كبير؛ فالجمال فيها متكلف مصطنع لم يرقني في شيء حتى أنني جلست مرة في إحدى المقاهي أراقب المارة من النساء وأنا أتفرس في الوجوه غاضاً النظر عن رونق الهندام ووسائل التجميل فكانت لي خيبة أمل إذ لم أجد من بين ألف سيدة خبرتهن إلا خمسين من ذوات الجمال الفاتن. أعني أن عدد الجميلات بينهن لم يزد على خمسة في المائة. فدهشت وقلت في نفسي ماذا دها مدينة النور حقاً إنها لسمعة جوفاء لا تقوم على الحقيقة، ولقد خدعت الناس تلك المظاهر الخلابة من إسراف في الأناقة ومغالاة في آيات الزخرف والطلاء.

وهنا آمنت بأن نساء باريس هن قادة العالم في فن الجمال لكنهن لسن جميلات؛ فالباريسية تحرص جهدها على أن تبدو وجيهة "شيك" عن أن تبدو جميلة. تتمشى وراء (الموضة) لا بل وتخلقها حتى لتكاد

تبتدع فيها ألواناً مختلفة ساعة بعد ساعة وهي تتفق ثلث إيراد عائلتها على الظهور بالمظهر اللائق بتلك الأناقة. ويروق الرجل هناك أن يرى الناس تجري وراء زوجته ويشبعونها إطراءً وتقريظاً وإعجاباً وهو بهذا فخور، ولعلها أكثر نساء الدنيا جرأة على ابتداع (الموضات) والظهور بها أمام الملأ وهي تتيه عجباً على الآخرين الذين يسارعون إلى تقليدها في إكبار، وكأن ما أتت به مقدس جيء به من السماء لا يقبل تعديلاً ولا تحويراً، رغم أني كنت أستسخف من هذه الأفانين الشيء الكثير. لكن كفاها أنها صادرة عن باريس مما أذكرني بحديث العامة عندنا عن "بنت باريز" وما له من سحر جرى مجرى الخيال.

وهل أنسى جلستي في أحد صالونات التجميل أشاهد شاباً وقف يعالج وجه امرأة عجوز خرجت من تحت يديه ملساء الوجنات بعد طول التدليك والإسراف في الدهانات، ثم جاءها آخر يحقن جلد وجهها وثالث يتعهد أهدابها بالكي والتلوين وشعرها بالتمشيط والكهرباء فبدت آخر الأمر وكأنها الآنسة الفتية الفاتنة، وأدهشني الرجل عندما أخبرني بأن عنده وسائل إعادة الجمال هي أفعل من هذه. أذكر من بينها لف الجسم بالشمع أو الاستحمام في حوض من اللبن أو النبيذ أو الطين الساخن. وتلك لم يردن من النساء إعادة النضارة كاملة للجسد كله.

ناهيك بزيارتي لإحدى مدارس الرشاقة في شارع دي لابي De La Paix وما تعانيه الطالبات هناك في دراستهن لمنهج الرشاقة الشاق الممض، فلقد حضرت بعض الدروس العملية في رشاقة المشية وحركات

الجسم في المناسبات المختلفة وكيف تتعلم الفتاة المشية شبه الراقصة والحركة الخاصة التي يتطلبها فستان السهرة بذيله الجرار. أو التسلل الفتي للغادة عند الزحام كل ذلك عن طريق تدريب العضلات لتعتاد الأوضاع التي تساعد على كل أولئك وتمكن الفتاة من خلع الملابس ولبسها في أوضاع مختلفة وفي لمح البصر. كذلك فإني حضرت درساً هناك عن تدريب الفتيات على مشية السلم صعوداً وهبوطاً في خفة ساخرة وما إلى ذلك مما يكلفهن جهداً ممضاً ومالاً وفيراً. وحتى الابتسامات ذات المعاني المختلفة والمناسبات المتعددة تتعلمها الفتيات كي يمارسنها في حياتهن الخاصة.

فكان طبيعياً والحالة هذه ألا تصبح الباريسية سيدة بيتها بالمعنى الصحيح، وكيف يمكن ذلك وهي تتناول أغلب وجبات الطعام في المطاعم مه زوجها وهي تحرص أن تكون قائمة الطعام فاخرة. وبعد الفراغ من الطعام تقصد بعض الملاهي لا لتتسلى بقدر ما تعرض أزياءها وزينتها على المتفرجين وعند الأصيل تسوق عربتها مخترقة غابة بولونيا تيهاً وتفاخراً وهي تلقي النظرات على المارة وتكاد تستنطقهم ما يجيش في نفوسهم من آيات الإعجاب والإكبار.

والمقاهي والمقاصف والمراقص لا تكاد تغيب عن العين لكثرتها، وكنت أرى شوارع بأكملها تصف على جانبيها هذه الدور متلاصقة وإلى قصارى مسارح النظر وكانت كلها تغص بالغانيات في كل آن، والكثير منها لا تغلق أبوابها لا ليلاً ولا نهاراً ولا تخلو من روادها أبداً، لذلك قل

أن ينام الناس هناك إلا عند الفجر فكان طبيعياً إلا يستيقظوا لمزاولة أعمالهم إلا في ساعة متأخرة من النهار. وحتى الأطفال كنا نراهم في صحبة آبائهم وأمهاتهم إلى ساعات متأخرة من الليل مما أثر على صحتهم فهزلت وحرم البيت قدسيته وحرمته "وهل ترى شاباً يسير في غبر صحبة غادته وهما يترنمان بالأغنية التي تقول Chacun avec chacune كل شاب إلى جوار حبيبته"

وبقدر ما رأيت من التأنق والخلاعة في نساء باريس لمست البساطة والحشمة في جهات فرنسا الأخرى وبخاصة الريف. فهناك لم أكد أرى من ألوان إلا الأبيض والأسود ولا تلبس المرأة الحرير إلا يوم الأحد ولا تتحلى إلا بصليب صغير ينزل من جيدها، فهي هناك متدينة لا تغفل عن ارتياد الكنيسة يوم الأحد أبداً. وهي مقتصدة إلى حد كبير. ذاك الاقتصادي الذي دفعتها إليه الزراعة في قطع الأرض الصغيرة التي تملكها كل عائلة والتي تتطلب القصد في النفقات إلى أقصى حد كي تدر عليهن ربحاً طائلاً. حتى جرى المثل بأن الفرنسية تستطيع أن تعد طعاماً من العدم. والمبدأ نفسه ينطبق على الملبس خصوصاً وأن فرنسا عرفت بالهبة الفنية والذوق الجميل الذي شهر به الرجال والنساء على السواء وهذا هو السبب الذي ساعدها على أن تعد ثوباً جميلاً من قماش لا يروقك منظره قبل أن تعالجه يداها. والنساء هناك يرمون مع أزواجهن بالشح وبالبخل إلى حد الاسفاف.

وكان يظهر لنا ذلك من مساوماتها التجارية في الأسواق ومن قبضة يديها الحديديتين على الفرنك، على أن هذا البخل هو الذي جعل فرنسا من أغنى بلاد العالم. وقد تعجب إذا علمت أن الفرنسية تصنع في بيتها ما تحتاج إليه من مربى وخبز وخل وعطور. وتحرص على أعشاب حديقتها كي تعد منها وقوداً يابساً. كذلك فهي تعصر في بيتها النبيذ والخمر وقد تنسج حاجاتها من الكتان بيديها حتى تعصر في بيتها النبيذ والخمر وقد تنسج حاجتها من الكتان بيديها حتى عرفت بأنها أكثر ربات البيوت كداً ونصباً. وكثيراً ما تقتصر في الأكل على منتجات حديقتها من خضر وفاكهة. فهي بستانية ماهرة. أما اللحوم فلا تشتريها إلا نادراً. ورغم الزواج المبكر هناك فإنك لا تجد من العائلات من كدهم الجوع أو أضناهم الفقر بفضل ذاك الاقتصاد العجيب.

ولما كان ثلاثة أرباع الشعب الفرنسي من طبقة المزارعين فإنهم لم يألفوا عيشة المدن بكثرة بل آثروا الريف ولقد كان لامتلاكهم الأراضي وتوريثهم إياها لبنيهم واعتمادهم عليها أثر كبير في توثيق عرى الروابط العائلية واستقرارها في القرى وقلل من الفوارق الكبيرة في الثروة، لذلك قل الفقراء المعوزون في مشاعرهم فكانت الفرنسية معروفة بشدة حنوها وعطفها ودقيق إحساسها. والمرأة الفرنسية تعتبر الزواج أمراً مكملاً لها فهو الغاية التي ترمي إليها كل فتاة. ومن ثم وجهت عنايتها إلى الرشاقة والتجميل أكثر منها إلى التبحر في العلم والتهذيب.

وحق علي أن أقرر بأنه سواء أكانت السيدة الفرنسية باريسية أم ريفية ماجنة أم فاضلة فإن أحداً لا ينكر عليها أثرها الجليل في إذكاء نار الوطنية في قلوب بنيها حتى عرف الفرنسيون بالتطرف في الوطنية. وهل ينسى أحدنا بطولة جان دارك؟ أو موقف نساء فرنسا من الغرامة التي فرضتها ألمانيا عليها في حرب السبعين وكيف سدها النساء بحليهن الخاص في سويعات قليلة رغم فداحتها؟؟

المجَرية

حللت بلاد المجر وافداً في رحلة نهرية من شرق نهر الطونة (أو الدانوب) إلى غربة وما كادت الباخرة تشرف على بودابست عاصمة البلاد حتى تجلت روعة المدينة بشقيها على جانبي النهر بودا إلى اليمين وبست إلى اليسار تصل ما بينهما سلسلة من قناطر أنيقة وتحف بجوانب النهر الأرصفة التي نسقت أيما تنسيق تنتشر على مداها المقاهي البديعة ويتوسطها جميعاً بناء البرلمان الذي يعد في نظري أجمل برلمانات الدنيا وتزيد روعة البلدة ليلاً حين تكاد تغطيها أنوار الثريات والمصابيح الوضاءة في أعداد لا حصر لها، لذلك لم أعجب لما أن أخذت من فرط جمال نسائها اللاتي تلمح في وجههن مسحة هي آية في الجمال لكن في شيء من الغرابة والشذوذ عن سائر نساء أوروبا كلها ولا عجب لأنهن دخيلات على تلك القارة؛ فأهل المجر وفدوا من قارة آسيا سنة ٨٩٥م وكونوا لهم شبه مستعمرة أو واحة وسط قارة أوروبا، ولا تزال سحنتهم تحمل الكثير من الملامح المغولية التي أشربت محاسن الخلقة الأوروبية.

والمجرية تفاخر بأنها عروس أوروبا جمالاً كما أن عاصمة بلادهم بودابست تفاخر بأنها ملكة الدانوب بلا منازع، وكأني بجمال عاصمتهم وقد انعكس على وجوه نسائهم. فهل أنسى مستراض الكورسو على ضفة النهر، وقد غص بالرائحين والغادين وقد تلاصقت الأكتاف ولا غرض لهم من وراء ذلك إلا الاستمتاع بالمشي فوق ضفاف الدانوب بين

صفوف المعجبين من رواد المقاهي البديعة.. تلك التي تتعاقب على طول الضفاف؟ ويزيد جمال الموقف الأزياء المجرية الصميمة لبعض الريفيات اللاتي تبدين في ألوانهن المنوعة وقد ارتدت الغادة من القمصان عدداً كبيراً الواحد أقصر من الآخر وأزهى لوناً واختلست النظرات، بعيونها الدعج الحور ومشيتها الراقصة التي لا تزال تذكرني بالرقصة المجرية القومية الصميمة (رقصة زارداس) في ترنحها البطيء الذي تصحبه دورة سريعة للجسم ثم شهقة تستهوي النظر..

ومما يزيد المجريات رشاقة وجاذبية حديثها في لغتها التي تتدفق كلماتها وكأنها هي عقود من لآلئ تلك اللغة التي ساعدت على تربية الملكة الموسيقية التي امتاز بها أهل المجر جميعاً فالجوقات الموسيقية والتياترات ودورها أكثر عدداً في بودابست منها في أية مدينة أخرى تعادلها كبراً حتى عرفت المجريات بين نساء الدنيا بالمغنيات والممثلات ونجوم السينما في نسبة تفوق نساء أي شعب آخر، وذلك بفضل هباتهن الفنية وفرط جمالهن. فكم من مرة ظهرت ملكات الجمال في العالم من بينهن.

والمجرية خفيفة الروح مرحة رقيقة العواطف، ومن ثم كانت شهرتها في الموسيقى، ويعجبك منها سذاجة الطبع وكرم الوفادة وحسن الاستقبال للغريب حتى أنني طالما سمعت عبارة (**Ista Hozott**) نتردد على ألسنتهم يقولونها للزائر ويكررونها مراراً ومعناها (لقد أرسلك الله إلينا) وهذا الكرم يعزي إلى سهول بلادهم الفسيحة قليلة القرى مما

يجعل شقة المسير على المسافة بين بلد وآخر بعيدة لا يتخللها من الفنادق شيء، لذلك يعتمد المسافر كثيراً على كرم الضيافة الذي يلقاه من الغير.

والمجرية مبالغة في نظافتها حتى أنه يعد فرضاً مقدساً عليها أن تغسل فمها بالسواك مرتين في كل يوم على الأقل، وتعني بتطبيق ثيابها بيديها قبل النوم ولا تكل ذلك لغيرها من الزميلات أو الخادمات، وكنت أعجب كلما رأيت الرجل ينحني مشرعاً ويأخذ بيد السيدة فيقبلها كلما أقرأها السلام أو حياها سواء أكان ذلك في البيت أم في الطريق.

ومن أعجب ما رأيت في كثير من بلاد أوروبا – وبخاصة في المجر – فئة من الرحل الجوالة الذين يسمون (جبسي) أعني الغجر وفدوا من بلاد الهند أبان فتح الإسكندر الأكبر ودخلوا إلى مصر أولاً ومنها إلى الشام ففرنسا فإيطاليا وإنجلترا ثم سائر بلاد أوروبا ويقولون بأن كلمة جبسي محرفة عن (Egypt) أي مصر لذلك يظن الكثير خطأ أنهم مصريون وهم في الحقيقة من الهنود. وهم يعيشون في عائلات مشتتة ترتحل من بقعة إلى بقعة وكأنهم وفود الكشافة في انتقالهم وسط الخلوات لا يملكون شيئاً بل يعيشون عيشة تقشف واستقلال همجي حتى بين أرقى الشعوب ولا يعترفون لأنفسهم بوطن معين، فالدنيا كلها وطن لهم حتى إني رأيت منهم في رحلاتي المختلفة الكثيرين في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والمغرب، ونساؤهم على نصيب فائق من الحرية وقدر

موفور من الجمال فهن ذوات شعر أسود ولون أحمر وأسنان ناصعة البياض وعيون منحرفة ورشاقة ممشوقة.

تتزوج الفتاة منهن في سن الثانية عشرة، ومن عاداتهم أن الأب إذا أراد أن يختار زوجة لابنه حمل زجاجة من نبيذ وربط حولها منديلاً، وصاح يقول: فقدت بقرتي الصغيرة، فيرد عليه والد الفتاة في سن الزواج قائلاً كم تدفع لي إن أنا أرجعتها إليك؟ ثم تقام الأفراح ثلاثة أيام كاملة. وحفل الزواج من أجمل ما رأيت في ضواحي بودابست فلقد أقاموا دائرة كبيرة من الخيام والعربات يشغل النساء والفتيات نصفها والرجال النصف الآخر، ويجلس العروسان على فروة في الوسط إلى جوار النار الموقدة التي كان ينعكس وهجها على وجوه الجميع ثم يتقدم أب العريس فيدفع المهر لأم الفتاة بعد مشادة طويلة ومساومة ملحة بين الفريقين، والرجال كلهم في جانب والنساء في الآخر، وكان يحاول فريق الرجال تخفيض المهر وفريق النساء زيادته وخلال تلك المساومة ظل العروسان مشغولين بحديثهما الخاص منصرفين عما حولهما وأخيراً أقسم العريس يمين الإخلاص لزوجته وصرحت الفتاة بأنها ستتركه إذا ما فتر حبها له، ثم قام الأب يخدش جرحاً صغيراً في معصم الزوج الأيسر وآخر في معصم الزوجة الأيمن ثم ضم اليدين إلى بعضهما وربطهما لكي يمتزج دم الواحد منهما بدم الأخر ثم قفز العروسان ويداهما مشتبكتان فوق مساحة كبيرة فرشت بجمر النار المتوهج والكل من حولهما يهللون.

ولعل أمتع ما راقني رقصهن بحركاته التي أتت بالمعجزات بأجسامهن النحيلة القوية التي لفحتها الشمس وقواها البرد في تلك الحياة الخلوية، وكلهن يعزفن على آلات الموسيقى ويغنين، ولقد بدأت الرقصة بين اثنين ثم زاد عدد الراقصات حتى فاق العشرين وهن يتمايلن في تناسق وانسجام لم أر له نظيراً وظل الرقص أغلب ساعات الليل وما كاد نور الصبح ينبثق حتى كان القوم قد شدوا الرحال إلى محلة أخرى يقيمون فيها خيامهم.. وفي الفجر يحتطب النساء ويصدن القنافذ والفئران يشوونها استعداداً للغداء إذا ما حل ميعاده.

أقلعت بنا الباخرة في الدانوب غرباً وسط سهول مترامية ثم ما فتئت بعد حين أن تغيرت المناظر فأضحت جبالاً معقدة رائعة بخضرتها ومنحدراتها ومسايلها، وتجلت بلاد النمسا وعاصمتها فيينا في خفة ودلال تلك البلاد التي خلتها فقيرة وخصوصا بعد معقبات الحربين العالميتين وما خلفتاه من بؤس وشقاء، وإذ بي أرى مظاهر العظمة تبدو في العاصمة هنا وهناك وهي من مخلفات ثروة إمبراطورية النمسا العظيمة بشعوبها المتعددة تلك التي انكمشت اليوم في حجمها ومواردها إلى حد يدعو إلى الأسى والأسف. لكن يظهر أن تلك الشعوب المختلفة التي كانت تخضع للإمبراطورية قد امتزجت وتصاهرت فتبلورت سلالاتها في أهل مدينة فيينا عاصمة البلاد ونتج عن ذلك نسل أنجب نساء فيينا ذوات الرشاقة الكبيرة والحلاوة التي تفوق الحدود وتستهوي من العقول الهادئ الرزين حتى أضحت تلك الجهة بحق (رقعة الجمال الفتان في العالم أجمع) جمال مرح فطري تزينه البساطة ولم تفسده وفرة المال،

وكنت أستمع لهن يقصصن على مسامعي من المآسي التي عانينها أبان الحرب ما تنفطر له القلوب على أنهن تحملن كل ذلك بقلوب مرحة فبدل أن ييئسن ويحزن – كما هو المنتظر في مثل تلك الظروف – طرحن التكلف ووجاهة الهندام فظهرن في بساطة مظهرهن الجديد أكثر جمالاً ولم تفارقهن هذه البسمات الساحرة ولا تلك الفكاهة وذاك المرح المحبوب.

وقد أثبتن بذلك أنهن أقدر نساء العالم على تناسي الهم وتقبل صروف الدهر بثغور باسمة ونفوس مرحة راضية لا يعرف الغضب إلى نفوسهن سبيلاً حتى صعب علي كزائر أن أميز بين فتاة في سن السابعة عشرة وبين زوجة متقدمة في السن ذلك لأنهن يحافظن على نضارتهن فتراهن دائماً في ميعة الشباب وفرط الجمال سواء في ذلك العاملات والأميرات!!

ولقد شجعهم ذلك على سلوك مسلك الكشف وهواية الارتحال فعبروا الطرق فوق الجبال ووفروا فيها الفنادق البسيطة ووسائل الاتصال، وقد بلغ بهم غرامهم بالطبيعة أني كنت أراهم في جموع هائلة يرتدون ملابس الرحلات ويحملون وراء ظهورهم الجعب وفي أيديهم العصي وهم يتسابقون في الصعود والركض رجالاً ونساء وأطفالاً شيوخاً وشباناً ناهيك بالاختلاف إلى المتنزهات التي تملأ الميادين حتى وقت الظهيرة حين ترى الأطفال مع مربياتهم وأمهاتهم يمرحون في تلك الحدائق، وقد زودت بالحمامات والملاعب فهم عشاق الطبيعة والخلاء بحق يختلطون

ببعضهم وبغيرهم هناك في غير ترفع أو تكلف؛ لذلك كانت النمساويات محبوبات من جميع الشعوب، يظهرن في وجوه باسمة جذابة وملابس تختطف بصرك بروائها تزينها وجوه مستبشرة فاتنة لا تحمل هماً ولا تأخذ أمراً باهتمام فلسفتهن في الحياة (افعل ما بدا لك) وعلاج ما يقع منهن من هفوات هز الاكتاف أو إلقاء النكات المرحة، وكلما حل بهن أمر جلل قلن (ليكن ما يكون) فإن ذلك أدعى إلى زيادة المرح والضحك حتى كان لهذا أثره السيء في تراخي حكامهم..

رغم المستوى الثقافي الممتاز في تلك البلاد وهم غير آبهين للبؤس والشقاء الذي خلفته الحروب عندهم فلم ينقص ميلهم إلى المرح خصوصاً النساء، ويكفي أن تحصي من المقاهي الكبيرة فوق سبعمائة في فيينا وحدها، هذا خلاف المقاهي الصغيرة لطبقة الفقراء، وغالب رواد تلك المقاهي من النساء.

فكأن تلك البقعة الصغيرة من وسط أوروبا وهي المجر والنمسا قد آثرها الله بجمال نسائها الفائق لكنه صور هذا الجمال على لونين مختلفين: الجمال المجري الذي يمت إلى الملامح الأسيوية بصلة وثيقة في خمرية اللون وانحراف العيون وبروز الخدود ودقة التقاطيع وخفة الروح، والجمال النمساوي الأوروبي في لونه الأبيض الوضاء النقي الذي أشرب بالحمرة المتوهجة وفي عيونه الزرقاء وثغره الباسم الذي يشع سحراً حلالاً تخفق له القلوب وتنجذب النفوس.

ولقد استرعى نظري بين نساء بودابست خاصة وفيينا عامة، شيء كثير من التقاطيع اليهودية في الأنوف الدقيقة المشرفة والعيون الضيقة واللون المقشور فتساءلت فقيل أن في العاصمتين عدداً كبيراً جداً من اليهود حتى لقبت بودابست بجودابست (أعني بالبلد اليهودي) وقد احتفظت الإسرائيليات هناك – كعادتهن في سائر بلاد الدنيا – بطابعهن الخاص من الجمال، وذلك لعصبيتهن الدينية وزهدهن في مصاهرة الأديان الأخرى مما حفظ لهن جمالهن المتشابه في كل الأقطار.

الإسبانية

دخلت بلاد إسبانيا مرتين: أحداهما وافداً من بلاد المغرب في إفريقيا عبر بوغاز جبل طارق فلم ألمس تغييراً كبيراً في سحن الناس وبخاصة النساء ولا في طباعهم وعادتهم. أما في المرة الثانية وقد دخلت البلاد من فرنسا عبر جبال البرانس فقد كان البون شاسعاً إذ بدت الفوارق كبيرة جداً بين الأوروبيات والإسبانيات. والحق أن الطابع العربي لا يزال يسود الإسبان إلى حد كبير؛ فالملامح العربية واضحة في تقاطيعهم وخمرية ألوانهم وسمرة عيونهم وسواد شعورهم.. يلبس النساء أردية هي أقرب إلينا منها إلى أزياء أوروبا فهي أردية قصيرة مهفهفة أفاريزها هادلة منتفخة بعضها فوق بعض، وغالبهن يرخي على الرأس الطرحة السوداء (مانتيا) فوق تاج من شباك العاج، وكأنها شبه حجاب ويرسلن على الأكتاف الشيلان الحريرية الثقيلة. وهن في رقصهن لا يخاصرن الرجال بل يرقصن في حلقات والصنج في أيديهن وأحبّ الموسيقى لديهن القيثار شبيه العود بضخامة رنينه ويألفون منه نظام (التقاسيم) ومن الغناء التأوه والتوجع (كالغناء البلدي عندنا) والفتيات يقفن ويختلسن النظرات من وراء أبواب نصف مغلقة فإن نظرت إليهن انزوين وراءها أو عجلن بإغلاقها.

ولا يجوز للفتاة أن تحضر مجلس الرجال عارية الأذرع أو الصدر، ولا يباح للصديق زيارة منزل ما إلا في حضرة صاحبه. والزواج يتم بدون

تعارف سابق بين الزوجين. ويظل الشاب في كنف أبيه بعد الزواج. وقد تفعل الفتاة ذلك وهن كريمات مؤدبات لا تمر إحداهن دون أن تقرئك السلام، وبعد الطعام أو العطاس تقول (بالهنا أو بالصحة) والسلام بينهن عناق متواصل. وكثيرات منهن يعتقدن في التفاؤل والتشاؤم فتراهن يعلقن خوص النخيل على أبواب دورهن مهما كانت فاخرة لأن ذلك بشير الخير ودافع للسوء وفي لغتهن بقية واضحة من العربية. ومن الأسماء الشائعة بينهن: سارة وبروكة وبخيتة، وينطقن بعض الحروف الإفرنجية نطقاً عربياً مثل الثاء والحاء والذال تلك الحروف التي لا تكاد توجد في اللغات الأوروبية الأخرى.

وهندسة البيوت لا تزال عربية إلى حد كبير؛ فمدخل البيت يكسوه القيشاني الملون البديع ويلتوي على نفسه كي يحجب الداخل عن أنظار المارة، ويتوسطه فناء رئيسي مكشوف تطل عليه أغلب الحجرات والنوافذ في أعمدة وبواكٍ نحيلة تزينها المصابيح التي تحاكي قناديل المساجد وتحلي جوانبها أصص الزهور البديعة وتتوسط هذا نافورة عربية أنيقة. وجميع النوافذ والأبواب تغشاها شباك الحديد الثقيل. وكنت ألمس وقار العرب وأدبهم ظاهراً فهم يجمعون بين الأرستقراطية والسيادة والإمارة، وبين بساطة الديمقراطية ورفع الكلفة واختلاط الغني والفقير في صعيد واحد رجالاً ونساء.

وكم من مرة سمعت القوم في إسبانيا يكررون تلك القصة الطريفة، وهي أن أحد ملوكهم طلب إلى آلهة السماء أن تمنح بلاده ضوء

الشمس فأجيب سؤله، ثم طلب للنساء الإفراط في الجمال، وللرجال حسن الأدب فمنح ذلك أيضاً فعاد وطلب أن توهب البلاد حكومة رشيدة وإدارة حازمة فصاحت الآلهة قائلة: كلا! كلا! فلن يكون ذلك وإلا لهجر الملائكة السماء وآثروا عليها أرض إسبانيا.. وتعليل ذلك أنهم مدينون للعرب بالكثير من دمائهم وحضارتهم وشجاعتهم وخصب بلادهم بل وسعادتهم كلها فالعصبية التي أعقبت طرد العرب بين عامي ١٦٠٠، ١٧٠٠م خلفت نقصاً فادحاً في الكفايات لأن سيادة العرب وإشرافهم الأبوي كان كبيراً ومتغلغلاً في الناس والأرض بدرجة أن محو تلك الآثار ومحاولة تحويلها إلى حضارة أوروبية كان أمراً متعذراً لا يتم إلا في قرون عدة، ولقد اختلطت اليوم حضارة العرب الممتازة بحضارة المسيحيين التي هي دونها رقياً والتي شابها كثير من حضارة الصليبيين التي كان أساسها العنف والعصبية الدينية العمياء.

ولعل أخص ما يميز الإسبانية على سائر نساء العالم: أنوثتها المطلقة الكاملة؛ فهي أنثى ليس غير وإن عد نساء البلاد الأخرى ذلك نقصاً فيها وعيباً؛ فالإسبانية تعرف بطراوة تقاطيعها وسحر عيونها الدعج ورقة دلالها وجمال بساطتها وانسجام قوامها؛ فهي أبداً في صحة جيدة بفضل جو بلادها وعدم تحميلها للمسئوليات الجسيمة، وهي أم مرحة محبة لبنيها مخلصة لهم تلفت النظر برشاقة مشيتها وبديع قدميها وشفيف بشرتها الخمرية التي تنم عن حمرة الدم العربي الجذاب.

ويدعي البعض أن شطراً كبيراً من جمال الإسبانيات يرجع إلى الأزياء القومية البديعة فكل من (الباسكينيا، والمانتيا) تظهر السيدة العادية جميلة والجميلة ساحرة. لذلك تزيد نسبة الجمال في الريف اليوم عنها في المدن لأن الأزياء الباريسية أخذت تنتشر في المدن وتفسد من الذوق القومي القديم. وترتدى المانتيا من الدنتيلا البيضاء في المناسبات المرحة ومن الدنتلا السوداء في المناسبات الدينية وهي تعلو مشرفة على الأمشاط العالية تزينها زهرة جميلة. وترى الأيدي وهي تحمل المراوح التي لا تفتأ تنتشر وتنقبض وكأنها الفراش المتنقل.

ونسبة العفاف بين المتزوجات هناك عالية جداً بفضل تدينهن من جهة وقيام الزواج على سند من الحب والرغبة من جهة أخرى، ونحن لا نكاد نجد للمهر أثراً في الزواج؛ فالسواد الأعظم هناك ينفر من فكرة تقديم النقود أو التمسك بنصاب من الثراء في الزوجة أو الزوج. على أن الزوج هناك لا يزال يعتقد أن الزوجة خلقت لسروره وتسليته فحسب، ولا يكافئها على ذلك بأكثر من انحناءة لكل سيدة جميلة تمر به أو بكلمة غرام أو مغازلة على قارعة الطريق حتى شاعت بينهم العبارة المألوفة الآتية: (أشاندوفيورس) أي الزهور المنثورة عليهن، وتلك الزهور هي كلمات الإعجاب التي تنهال عليهن في الطريق. وكل فتاة تتمنى أن يصيبها في طريقها قسط كبير من تلك الزهور الكلامية. وكثيراً ما كنت أرى رجلاً أوقف حديثه الجدي مع عملائه لكي يلقي بيت شعر أو جملة مغازلة لفتاة تمر في الطريق ثم يعود لاستئناف عمله مع رفاقه دون أن يستنكر أحد ذلك. أذكر مرة وأنا في قادس أن جمعاً من الشبان

استأجروا زورقاً لنزهة بحرية فحاولت غادة حسناء أن تعبر شطاً رملياً مبللاً فأسرع شاب وفرش لها على الطين حزامه المخطط (Capa) وانحنى على ركبتيه ومد يده إليها وقال: تفضلي مري على ذلك البساط؛ فمرت وهي فخورة بذاك الجمال الذي أغرى الشاب أن يفعل ذلك!

وحبهم رجالاً ونساءً للمقاهي فائق الحد؛ فبعد كل وجبة للطعام يذهبون لشرب القهوة ويطول بهم الجلوس مساءً على موائد الشراب إلى ساعات متأخرة من الليل، والكل يسرف في التدخين والدخان ليس مفروماً كما نألفه عندنا بل مهشم ويلففنه بأيديهن! والإسبانيات رغم ذلك أكثر حشمة من سائر نساء أوروبا وأجسامهن أقرب إلى الامتلاء لقلة الحركة من أثر لزومهن الدار طويلاً، وذلك لا شك من أثر الحجاب العربي. وهن أقل استخداماً لدهانات الوجه، وبهذا يفسر بطء شيخوختهن عن غيرهن ممن يسمم الطلاء بشرتهن..

وخير ما يجمل الطرق مشهد السيدات في ملابسهن البديعة، وكثيراً ما كنا نمر بهن في حلقات وهن يرقصن على أنغام القيثارة على قارعة الطريق، ولا يشاطرهن الرجال بل يقفون متفرجين.

ويدهشك أن ترى السيدات يصطحبن معهن أطفالهن حيث ساروا حتى في الملاهي المحبوبة لديهن وبخاصة المقاهي ودور السينما ودور مصارعة الثيران التي يقدسنها جميعاً ويظهرن فيها بأجمل حللهن وكامل زينتهن؛ فالأطفال يمنحون هناك نصيباً كبيراً من الحرية والتدليل مما

أعفاهم من الاعتماد على النفس واحتمال المسئوليات تلك التي تخلق في النشء الرجولة وتربي فيه الجرأة حتى أن الطفل إذا شب وتزوج ظل هو وزوجه في كنف أمه وأبيه يعتمد عليهما في كثير من أموره الخاصة وذلك عيب يعاني منه الإسبان كثيراً.

وقد لاحظنا أن سيطرة الكنيسة هناك شديدة على عقول الجميع، وخصوصاً النساء، فالعصبية الدينية بالغة أشدها ولا تكاد تحصي الحفلات والمواسم الدينية التي تضيع كثيراً من الوقت والمال. والأمهات يحرمن على الأطفال الغسل والاستحمام مخافة أن يتشبهوا بالمسلمين حتى ساعد ذلك على زيادة نسبة الوفيات من الأطفال عندهم، وهم يحاربون تعليم البنات إلى اليوم لاعتقادهم أن ذلك يساعد على الزندقة والإلحاد. ومن أثر عصبيتهم الدينية بعد طرد المسلمين عرفوا بتعصبهم لرأيهم ذاك الذي خلف فيهم تلك النزعة الثورية التي تصيب البلاد دائماً بالاضطراب.

ويوصف أهل الأندلس بخفة الروح والإهمال والتقاعد والتسويف فأنت لا تفتأ تسمع كلمه "مانيانا" أعني غدا فهم يسوفون في كل شيء وإذا انتقدناهم قالوا: ولكن ألسنا مع ذلك سعداء؟ ولا يزال الناس يعدون بلاد الأندلس من البلاد الشعرية، ويرمون أخلاق أهلها بالانحلال ويشيعون عنها بأنها بلاد الغزل والغرام. يقف العشاق إلى جوار الجدران تحت النوافذ يعبرون عن آيات حبهم بأنغام القيثارة التي يعزفون بها لكنهم مع ذلك وادعون مسالمون يميلون إلى رغد العيش ولا يهمهم أمر الغير ما دام في جيب الواحد منهم (أونابيسيتا) أي قرش واحد.

الإنجليزية و الألمانية

تعجبين يا سيدتي إذا علمت أن الإنجليزية والألمانية منحدرتان من أصل واحد هو العنصر الجرماني أو الأنجلو–سكسوني. ومع ذلك فهما على طرفي نقيض في كل شيئ، تنظر الواحدة إلى شقيقتها نظرة ملؤها البغضاء والحقد. وكلاهما يدعي لنفسه الصدارة والسيادة في كل شيء ويترفعن على سائر نساء الدنيا وينظرن إلى الغير من علٍ، وكأنهن من طبقة كتب الله لها السيادة في الأرض. وهل يجهل أحدنا مبلغ الترفع الإنجليزي والصلف الألماني؟ وهل أنسى أنا.. صديقي الذي حل مدينة لندن للدرس على حسابه الخاص وكان من طبقة مصرية وفيرة المال عريقة الأصل، فنزل على عائلة إنجليزية من الأوساط الرفيعة ليعيش معها وكأنه أحد أفرادها. وما هي إلى فترة قصيرة حتى أخذ يعيرها جيرانها من علية القوم بأنها آوت نزيلاً هو دون مرتبتها علواً مؤيدين ذلك بأنه قمحي اللون أسمر العيون ولم يكن من ذوي الوجوه المقشورة والعيون الزرق حتى يعده الناس من الأجناس الممتازة، فما كان من هذه العائلة إلا أن اعتذرت لصديقي عن بقائه عندها لا إنكارًا لأصله بل تمشياً مع الرأي العام في بيئتها!

ويدعي الإنجليز أن تحرير المرأة بمعناه الشامل لم يتم في العالم إلا لنساء إنجلترا، ودليلهم على ذلك أنك إذا وقفت عند منافذ مدينة

لندن في عطلة آخر الاسبوع ألفيت جماهير الفتيات والسيدات يسرعن مشياً أو على الدراجات، وقد لبسن السراويل القصيرة والقمصان المشطورة وحملن الجعب وراء ظهورهن يمضين ليلة أو ليلتين في الخلاء تحت الخيام، ويقمن هناك بمختلف وسائل الرياضة تلك التي نمت فيهن حب المخاطرة ومحاولة الانتصار والتغلب على الصعوبات؛ فكونت بذلك أخلاقهن وقوت أجسادهن وصرفتهن عن كثير من المجون والفضول، وبفضلهن انتشرت الجمعيات الرياضية التي تعمل على نشر الألعاب وتشجيع الرحلات؛ فأنتجن بذلك نشئاً سليماً هو خير عدة للوطن وأهله.

ولا ينكر أحدنا فضل الإنجليزية في تربية أطفالها تربية استقلالية ميزت الشعب الإنجليزي على سائر شعوب الأرض بالاعتداد بالنفس والاستقلال بالرأي والعزيمة الصادقة. وحتى في دور الطفولة الأولى كنت ألاحظ الأمهات يستصحبن أطفالهن معهن إلى الحدائق ويتركنهم يلعبون كما يشاءون دون تدخل منهن إلا عند الخطر، وكانت الأم تمضي الساعات لا يسألها الطفل أمراً بل ينصرف برأيه مستقلاً. وهي لا تغالي في الحنو والتدليل. وهل رأيت أمًّا تبكي وتنتحب إذا ما دعا داعي الوطن فسافر ابنها إلى ميدان القتال– وقد يكون إلى غير رجعة – أنها هي التي تودعه في فرح وبهجة تعلو ثغرها بسمات السرور والتشجيع!!

وكثيراً ما ترمى الإنجليزية بجمودها وعجزها عن الابتكار، لكنها لا تبارى في العالم أجمع في حسن إدارة منزلها وتوفير الراحة والهناء في

كل ركن من أركانه؛ ففي الشتاء يتجلى ذلك في المواقد الفنية البديعة التي تزود بها الحجرات، وفي الصيف يبدو ذلك في حدائق المنازل التي نسقتها الزوجة أيما تنسيق.

والإنجليزية – كما يقال كثيراً – تسير وراء زوجها خطوات بينما الأمريكية تسبقه، أما الفرنسية فتسير معه جنباً إلى جنب وهي أكثر إخلاصاً لزوجها منها لبنيها. ينتهي استمتاعها (her good time) بمجرد زواجها، فمهمتها أن تنجب أطفالاً لا أن تسوق دلالاً أو تزجي نصائح لزوجها. وهي لا تتدخل قط في عمل بعلها كالفرنسية مثلاً تلك التي يبدأ استمتاعها الخاص بعد الزواج مباشرة. والإنجليزيات ماهرات في نصب الأفخاخ لصيد أزواجهن، ولكنهن لا يستطعن إقامة تلك الأقفاص التي تحبس فيها الفرنسيات أزواجهن؟ والإنجليزيات رشيقات يمشين في وقار ولا يتكلفن في أرديتهن ولا يطلين وجوههن إلا نادراً، والجمال فيهن نادر لكنه إن وجد كان مفرطاً.

أما الألمانية فلا تعد من الجميلات على وجه العموم فهي أقل رشاقة من الباريسية وخفة من النمساوية ودلالاً من الأمريكية، لكنها لا شك تفاخر بطلاوتها ومضائها وحسن ثقتها في نفسها. وبفضلها عرف البيت الألماني بالنظام والاقتصاد والتناسق والنظافة، ورغم معقبات الحروب الأخيرة لا يزال مستوى البيت الألماني عالياً. وأكثر أطفال العالم حظاً من اهتمام الأم ورعاية البيت: الطفل الألماني. والألمانية شديدة الاقتصاد والتقدير نظيفة إلى حد كبير، تشتغل في البيت أو

الحقل من الصباح الباكر إلى المساء بدون انقطاع في عمل مجهد خارج البيت وداخله؛ لذلك أضنى الشغل صحتها فأسرعت إلى الهرم حتى قيل بأن مقتبل العمر بين نساء ألمانيا ليس له وجود، فالمرأة إما أنسة أو سيدة عجوز. ويساعد على ذلك كثرة الذرية فهي امرأة نتاج لا تكاد تربي هذا الطفل حتى يظهر حمل جديد.

وتحاول الدولة تيسير الزواج بالمنح المالية، وحتى العاملات كلما طردن من المصانع هيأت الدولة لهن أزواجاً يعوضون عليهن تلك الخسارة. ولا يزال يستنكر الرجال توظيف النساء خارج المنازل؛ فالسيدة عندهم ربة دارها فحسب، وفي الريف خادمة حقلها تحمل على ظهرها أحمالاً ينوء بها الغير. ولا يختار الزوج زوجته لجمالها أو أخلاقها بقدر اختيارها لمدى حبها للعمل المضني وجهدها داخل المنزل وخارجه. لذلك اشتهرت الألمانية بالجد واحتمال المشقة والصبر والأمانة والادخار.

ولا عجب أن يرمي الباريسيات نساء ألمانيا بأنهن خادمات بيوت فحسب وهن في نظرهن يعوزهن حسن الذوق في الهندام وخفة الروح ويسودهن انسجام في السيقان وثقل الأرداف وبأن الألمانية لن تستطيع أبداً أن تظهر في قدر من الزينة يسترعي من الأنظار أحداً!

وفي مناسبات الزواج ترسل الألمانيات بطاقات الدعوة من ورق مفضض ويتبارى الأصدقاء في دعوة العروسين إلى حفلات يقوم فيها

الخطباء وتقدم الأكاليل من الأنصار. وتعد العروس بيدها كعكة كبيرة ليلة الزفاف تخبئ في داخلها حبة من فول أو من بن وتحاول الآنسات من المدعوات العثور عليها ومن وفقت بشرها ذلك بزواجها قبل انقضاء العام! ثم يبدأ الرقص والغناء والموسيقى وتخرج الفتيات في حلقات إلى سفوح الجبال المجاورة راقصات مغنيات بعد أن يكن قد أسرفن في شرب الجعة أحب المشروبات لديهن جميعاً.

ومن أجمل ما يعرف عن النظام الاجتماعي الألماني تلك الفنادق التي يسمونها Gasthof أي دار الضيافة تلك التي تنتشر في كل مكان ويؤمها خلق كثير على اختلاف طبقاتهم بعد الفراغ من العمل يتجاذبون أطراف الحديث على قدم المساواة، وهي ليست كالمقاهي الفرنسية مثلاً تلك التي يقصدها الراغب في الخمر والمجون، بل هي أشبه بالأندية تحس فيها روح الاجتماع ويكون النساء فيها عنصراً مهماً ولا تخلو من الموسيقى أو الغناء والألمانيات كقريباتهن من الإنجليزيات لا تكاد تجد في بلادهن من المقاهي المألوفة عندنا شيئاً لأن الوقت عندهن ثمين، وليس إلا الأندية أو دور الضيافة وقد تفتح مشارب للشاي أو القهوة أو الجعة لفترة قصيرة من اليوم يؤمها القوم خلالها من رجال ونساء لتناول كأس تنعشهم قبل العودة إلى العمل.

وفي جهات نائية من شمال ألمانيا على شواطئ بحر البلطيق شبه مستعمرات يعتنق أهلها مذهب العري، ذاك الذي راعني كثيراً عندما رأيت القوم رجالاً ونساء وأطفالاً يسيرون عرايا تماماً وكما ولدتهم أمهاتهم

دون خجل أو حياء، ولا أنسى شعور الخجل والخزي الذي كان يغمرني وأنا أجوس خلال مستعمرة من هاتيك ومعي زعيم منهم يحاول إقناعي بأن المذهب طبيعي سليم يتمشى مع سنة الخالق ويرمي إلى تحسين الأجسام وتقوية الصحة وتجميل الوجوه بالاستمتاع الكامل بالشمس والهواء. فقلت له ولكن ألا ترى أن ذلك منشط للميول الجنسية باعث على الفساد الخلقي؟ فكان يرد علي في شيء من اليقين بأن الله خلق الناس عرايا ولا تزال فطرة العري سائدة بين همج الإنسان في كافة الأنحاء ولم ينجم عن ذلك فساد بينهم. وكان يقول بأن الذي يثير الظنون ويستهوي النفوس هو ذاك الغطاء الخداع الذي يلبسه الإنسان ولو أن الجسد ترك عارياً لما أثار في الرجال شيئاً من الاهتمام.

هذا إلى أن الباعث الذي يدفع الناس إلى الملابس ما هو إلا حب الظهور ذاك الذي يساعد على خلق نظام الطبقات وإظهار الفوارق بين الناس، والمرأة تتيه بدلالها وملابسها الفاخرة فتغري بذلك الرجال، أما جمال الأجسام العارية فغير فاتن ولا جذاب. كذلك فإن اعتياد الإنسان رؤية الأجسام عارية يضعف من نزعه الشر والفساد، وما دام الجميع قد استساغوا الظهور عرايا وجه كل منهم عنايته إلى تحسين جسمه لكي يبدو على أكمل شكل وأجمل حال. وبدل أن توجه السيدة عنايتها إلى تجميل ثيابها يكون أجدر بها أن تعنى بصحبة جسدها وجماله، ناهيك بنشر المساواة بين الناس جميعاً لأن الكل يظهر عارياً لا يحتمي واحد في وجاهة من الهندام ترفعه فوق غيره درجات وتشجع فيه التمويه

والخداع! ولم لا نكون أكثر صراحة وأقرب إلى الفطرة السليمة وأبعد عن المواربة والتدليس؟.

ذاك منطق القوم يستسيغه كل يوم أفواج من الناس تدخل هذا المذهب بينا نراه نحن غريباً شاذاً بل وحشياً ولا سبيل إلى قبوله.

الهولندية

حقاً لقد وجد الجنس اللطيف في هولندا جنة الله في الأرض؛ فنفوذ المرأة مطلق في دائرة اختصاصها وأعمالها التي تتعدد مناحيها فبنت البحر – وهو اللقب الذي توسم به تلك البلاد – فخورة ببناتها لأن الهولندية لم تفسدها الأنانية ولا الدلال كما فعل ذلك بالأمريكية. ولم تصبح أسرة رشاقتها كالإسبانية والإيطالية. ولم يكدها العمل مثل الألمانية والفرنسية، ولم تقتصر على أن تكون أنيسة الرجل كالروسية؛ فهي مواطنة عاملة على رفع شأن بلادها وهي وفية لزوجها وصديقة لأبنائها، تعرف بالبسالة والوطنية وتفرط في تعشقها للحرية.

ولا شك أن لعدوان البحر على بلادها أكبر الأثر في تلك الصفات؛ فنظرة واحدة إلى السدود الجبارة التي أقاموها في وجه المحيط تؤيد تلك البسالة النادرة، وهن في كل لحظة متأهبات لإجابة النداء إذا ما سمعن الصيحة (هلموا هلموا) تتجاوب بسبب إغارة البحر على جزء من تلك السدود.

على أن الهولندية يعوزها جمال الوجه وتناسب أجزاء البدن وكثيراً ما وصف السائحون أهل هولندا بأن الرجال منهم تنقصهم السيقان الممشوقة، والنساء يفتقرن إلى الخصر الأهيف وجمال القدمين. والهولندية كزوجها سيئة الظن بالغير، شحيحة في معاملاتها المالية

ومساوماتها، لذلك عرف الهولنديون نساءً ورجالاً بالبط الشديد في كل شيء حتى في التفكير وفي المغامرة في المشروعات الاقتصادية يسودهم شيء من الوسواس والتردد حتى في مشيتهم بسبب أحذيتهم الخشبية الثقيلة الممضة.

ويؤخذ عليهن شيء من قلة الذوق في الحديث؛ فهن صادقات صريحات لحد الإيلام، أما نظافة المسكن هناك فقد بولغ فيها إلى حد الخيال يهولك بريق جوانبه ولمعان أثاثه وشدة التأنق في تنسيقه إلى حد المضايقة رغم أنك تلاحظ بعض الإهمال في الهندام الشخصي ذاك الهندام الذي يبدو عجيب المنظر، فهو للنساء قلنسوة بيضاء ذات جناحين جانبيين مشرفين وجلابيب محبوكة طويلة تنفتح من أسفلها. وتلبس السيدة عليها فوطة شبيهة بفوطة الخادمة ذات ألوان زاهية. والحذاء قطعة كبيرة من خشب نقر وسطها في حجم القدم وله طرف أمامي مدبب يتقوس إلى أعلى وكأنه مركوب الفلاحين القديم في صعيد مصر، ولعلها أطول الأحذية وأضخمها في الدنيا جميعاً.

وأحب وسائل الرياضة لديهن السباحة وقيادة الزوارق، وقد يكون ذلك استعداداً لطوارئ البحر المتوقعة كل حين، والدراجات مطيتهم الرئيسية جميعاً حتى بين القرى. وكفى أن تحصي في أمستردام وحدها نصف مليون دراجة مع أن مجموع السكان فيها لا يعدو سبعمائة ألفا.

وتعد الهولندية النحافة – التي يعتبرها نساء باريس ولندن ونيويورك – عاراً ودليلاً على العوز وسوء التغذية لذلك تبدو بضة منتفخة الوجه منبعجة الجسم، وكيف لا تكون كذلك وهي تتناول خمس أكلات من طعام شهي دسم لذيذ كل يوم؟ ومهما تكن مرتبة الفتاة الاجتماعية وجب عليها أن تتعلم على يد أمها فنون الطبخ وتدبير المنزل والعناية بالأطفال لأنها سرعان ما تصبح ربة دارها.

وبفضل عنايتها هذه زاد النسل وقلت نسبة الوفيات من الأطفال هناك. ولا تزال المرأة هناك تقوم بقسط عظيم من العمل في الصيد والزراعة وفي فلاحة البساتين وتربية الزهور وفي إعداد الألبان. وبفضل رجعيتهن حافظن على كثير من عاداتهن القديمة أذكر من بينها خروج الفتيات اللاتي في سن الزواج ليحاربن الشبان بالوسائد في مواسم معينة وخلال التراشق بتلك الوسائد تتوثق العلاقات تتم صفقات الزواج.

وأما جاراتها من الدنمركيات فيتميزن بشدة احمرار البشرة وصفاء زرقة العيون وعرض الأنوف وهن كجارتهن من الهولنديات في مؤخرة نساء أوروبا جمالاً وجاذبية على أنهن مرحات نشيطات نظيفات يبدو ذلك في هندامهن الأنيق ومأكلهن حتى عد طهاتهن أنظف طهاة أوربا وأمهرهن وإن لم يرقني الطعام هناك كثيراً لأنه مسلوق ويكثر به لحم الخنزير.

والدنمركيون كثيرو الأكل يتناولون بين أربع وست أكلات ثقيلة في اليوم، ولا تخلو أكلة من طعامهم القومي المحبوب الذي يسمونه (سموربرود) ومعناه الخبز الملطخ، وهو مزيج من الخبز والزبد والبيض وقطع الدجاج والسمك ولحم الضأن وبعض الخضر كل ذلك يقدم إليك مختلطاً كالساندوتش. وفي المطاعم يصدر به الأكل فيشعر المرء بامتلاء عند تناوله قبل أن تقدم له الأطعمة الرئيسية. وترى البائعات يتجولن في الطرق بعربات يدوية صغيرة يجهزنه لك على الفور.

وكم كان يروعني منظر القوم وأنا جالس إلى مائدة الطعام في الفندق وهم يلتهمون الطعام التهاماً وفي سرعة عجيبة رغم كثرة الكمية التي تقدم من البطاطس المسلوق واللحوم والطعام القومي سالف الذكر وأنواع من الحلوى تحكي العجين يمزج باللبن والعسل عافتها نفسي كثيراً. وأحسن ما راقني من طعامهم السمك المسلوق يغمر في إناء كبير من الزبد الدافئ الطازج. والزبد الدنمركي أجود أصنافه في الدنيا نوعاً وطعماً. ويكاد يكون هذا الطبق الشعبي الثاني بعد الساندويتش سالف الذكر. ولطعامهم النقي الصحي خير الأثر في أجسام النساء، ودنمركة تعد أحسن دول العالم طعاماً وعناية برقابته.

وأهل دنمركة هم المثل الأعلى للديمقراطية في العالم؛ فالرجل منهم يرفع قبعته احتراماً لأحقر الناس حتى للخادم، وكم من مرة رأيت مليكهم يمر وحيداً وهو يسير على قدميه أو يركب جواده ويختلط بالناس ويحييهم وكأنه واحد منهم لا يحف به حشم أو حرس. وقيمة المرء هناك

بعمله فقط وفوارق الطبقات معدومة تماماً والميزات والحقوق الموروثة لا أثر لها عندهم.

وقد خلف ذلك أثره في روح التسامح الديني عندهم وفي إباحة الطلاق للجميع لذلك كثر الأبناء غير الشرعيين بينهم وهم لا يعدون ذلك عيباً بل أمراً طبيعياً لا عقاب عليه. وفي خلقهم التسامح العام والمساواة المطلقة لا يقع بينهم شجار أبداً ولا يتعرض أحد بالإهانة للغير وإن حدث كان عقاب القانون صارماً قاسياً. والزوجان هناك من أسعد الناس ذلك لأن الدنمركي معروف بروح المرح والفكاهة يبتسم لكل شيئ، وتعنى الزوجة بسلامة جسمها وقوته وهي كالعربية كريمة جداً – وإن خالفتها في كونها غير متمدينة – يتجلى هذا الكرم في فتح أبواب بيتها للأضياف مهما كثر عددهم. فمثلاً بينا ترى البيت الإنجليزي بمثابة حصن للزوج دون غيره إذا بالبيت عند الدنمركية مضيفة ترحب بكل طارق. والدنمركي من أرقى شعوب الأرض ثقافة، وقلما تجد سيدة لا تجيد لغتين أجنبيتين، وحتى مدارسهم لا تفرض عليهم مناهج معينة بل يترك أمر ذلك للأستاذ يدرس مع طلابه وطالباته ما يراه. وهم من أشد أهل الأرض تقديساً للمساواة والديمقراطية حتى إن الخدم بالمعنى المعروف عندنا ليس له وجود هناك، فالسيدة والخادمات يجلسن إلى مائدة واحدة..

والقانون يبيح الطلاق هناك بأوسع معاينة ولا يضع في طريقه موانع مطلقاً، على أن الطلاق يتم سراً فلا يكشف أحد الزوجين عن مساوئ الآخر بل ينفصل الاثنان دون أن يعرف من المتسبب في ذلك.

ولعل دنمركة من الدول النادرة التي تتساوى فيها المرأة في المستوى الثقافي مع الرجل تماماً في الناحيتين العلمية والعملية على حد سواء لا يفوقها في ذلك سوى الأمريكية، وحتى الأثرياء منهن لا يجدن عاراً في العمل للكسب مع الرجال. ولهؤلاء العاملات أندية ونقابات عدة قربت بين نساء الطبقتين الراقية والفقيرة فتحسن بذلك مركز المرأة على وجه العموم. ودنمركة معروفة بأنها سيدة الدنيا في نجاح التعاون وانتشار المتعاونات في كل ناحية. وكذلك النوادي أذكر على سبيل المثال (نادي المطالعة للنساء) في كوبنهاجن وقد رأيته يحتوي على نحو أربعين ألف مجلدا وتنظم به المحاضرات وتقام الحفلات وقيمة الاشتراك لا يزيد على ستين قرشاً في العام، وفي بعض الأندية يقدم الطعام نظير قرشين ونصف للأكلة الواحدة. وهناك رأيت (النادي التجاري للنساء) للاجتماع والادخار ويعمل على مساعدة النساء مالياً إذا ما كبرن أو أصابهن المرض.

ولاحظت على نساء دنمركة شيئاً من الإباحة في لعب الميسر وشرب الخمر والتدخين وأنهن مرحات لا يعبأن بالحياة الجدية بل يأخذن كل شيء في سهولة وعدم اكتراث. ولقد خففت الآلات الحديثة في صناعة الألبان من أعبائهن فتفرغن بعض الشيء للعمل في المنازل

وخدمتها. فما كنت أحل منزلاً كزائر من السائحين عابري السبيل حتى كان القوم يبالغون في الترحيب بي وكانت ربة البيت تمد السماط بصنوف عدة من الطعام وتقدم القهوة مع الكعك، وذلك أمر لازم كلما حل طارق وقد يقدم السمور برود ويكرر ذلك عند الانصراف حين تتمسك ربة البيت أن يتناول الضيوف وجبة خفيفة تعاونهم على احتمال مشقة الطريق! ولابد من ختام الطعام بالقهوة التي يظل قدرها على النار صباح مساء.

وحفلات الزواج تدوم يومين كاملين، أما الجنائز فيوم واحد يكثر الأكل فيه ويبقى النعش وسط البيت ومن حوله نساء الأقارب في ملابس سوداء يمسكن بمناديلهن وأناجيلهن وكلما دخل ضيف رفع له القناع عن وجه الميت ليراه. وعند ميلاد طفل يتقدم نساء الجيران مهنئات ويقدمن الحلوى تعجن بالقهوة ثم تنتقل الأم إلى الكنيسة وتدخل الهيكل ليباركها القسيس هي وطفلها وتعود تحوط طفلها بكامل عنايتها حتى يشب ويترعرع.

الأمريكية

حللت نيويورك فراعني جمال نسائها الفائق وسحرتني خفة روحهن، ولا عجب فأمريكا أكبر مصهر للأجناس في الدنيا سكانها في الأصل من النازحين إليها من مختلف أجناس العالم تصاهروا فتبلورت في ذريتهم مختلف محاسن الشعوب. وكان خير ما تجلى هذا بالطبع في وجوه نسائهم. وكم أدهشني الفرق الشاسع بين الأمريكية والإنجليزية مثلاً رغم أنهما يتكلمان لغة واحدة؛ فأخلاقهن متباينة متنافرة فالأمريكية تستنكر من الإنجليزية ترفعها عن الدخول في محادثة الغير وترميها بأنها صماء خاملة الفكر. والأمريكية سريعة التعارف ورفع الكلفة مع غيرها ولا تخفي عن الغير حتى دخائل بيتها. فهي تتحدث للناس عن مبلغ كسبها وعن نشأتها الوضيعة وعن طريقة إثرائها، تلك الأمور التي تجعلها الإنجليزية سراً مكتوماً، ولعل أميز صفاتها شدة بساطتها عن نساء أوروبا جميعاً؛ فأنت لا ترى فرقاً كبيراً بين هندام الغنية والفقيرة كما يرى ذلك واضحاً في أوربا.

ولا تكاد تجد من المطاعم ما يخص طبقة دون غيرها فالكل سواسية على عكس ما ترى في إنجلترا مثلاً، والأمريكية – كزوجها – مدينة في رياستها للأعمال لكفايتها ودهائها وليس لجاهها أو حسبها، وهي نشيطة يقظة جريئة مغامرة، تحاول أن تستعين بالنظريات العلمية على تذليل الصعاب كلها وهي أقل سكان الأرض قناعة تجدها أبداً نزاعة

إلى السمو والنمو والرفعة تعبد النجاح ورمز ذاك المعبود الدولار القادر The almighty Dollar كما يسمونه. ومن العجيب أن ذاك الإخلاص للدولار لا يصحبه بخل أو تقتير أو حقد على الغير فترى الواحدة على صفاء مع مزاحمتها تكلمها في غير كلفة وكأنها أختها الوفية المخلصة.

وقد اعترف الرجل في أمريكا بأن المرأة أرقى منه وأسمى مكاناً؛ لذلك بالغ في احترامها وعمل وسعه على تزويدها بوسائل الراحة والترف ومنحها من الحرية قدراً نراه نحن مسرفاً. وهل أنسى دهشتي وأنا أجوب جوانب شارع برودواي والأكتاف تكاد تتلاصق، وإذا بحسناء تجري وسط تلك الجموع الكثيفة تداعب الناس يميناً وشمالاً، وما أن وجهت نظري إليها حتى أمسكت بيدي وأدارتني بعنف وضحكت وهي تصيح قائلة! Excuse me! I am crazy تعني (لا مؤاخذة فإني مبسوطة). ولقد كان لذلك أثر سيء على كثير من النساء هناك أو أسأن فهمه وبالغن في اللهو والمجون وفي تبديد ما ادخره لهن أزواجهن من مال وفير.

وكثير من الأزواج يسايرون زوجاتهم في ذلك ويتحدثون عن ثروتهم ويفاخرون بما يقيمون من حفلات وولائم تكلفهم الواحدة منها بين ثلاثين وخمسين ألف دولارا. وتنفق نساء الولايات المتحدة على وسائل التجميل من أدهنة ومساحيق وما إليها زهاء أربعمائة مليون جنيها كل عام حتى أغرى ذلك مروجي الترف من أهل باريس وفيينا أن يجدوا لصناعتهم أحسن الأسواق في نيويورك فسافروا إليها وأقاموا فيها أفخم الأوبرات

والصالونات ودور الملاهي حتى سبب ذلك ارتفاعاً في تكاليف الحياة بين سائر الطبقات وسرعان ما زادت فوارق الطبقات وضوحاً مما أدى إلى زيادة التبرم بالحياة هناك.

ولقد منح النساء حق المساواة التامة مع الرجال في الأعمال والوظائف والتعليم، وفي الجامعات ينفق الرجل على أولاده وبناته جميعاً فإن لم يستطع فضَّل أن تبقى البنت في دور العلم وعجَّل بإلحاق الولد في مصنع أو محل للكسب؛ لذلك أصبح المستوى الثقافي عند النساء أرقى منه عند الرجال هناك.

ونلحظ ذلك في سعة الاطلاع هناك، فأمريكا أوفر البلاد عناية بطبع الكتب والمؤلفات في كثرة لا تبارى. وتعجب لو علمت أن أكثر قرائها من النساء لما لديهن من متسع في الوقت لا يتاح لأزواجهن، لذلك خشي البعض سوء العاقبة وزوال السعادة الزوجية بسبب الفرق الشاسع بين عقليات الأزواج والزوجات. وأمريكا هي البلاد الوحيدة التي يكاد عدد خريجي الجامعات من النساء فيها يكافئ المتخرجين من الرجال أو يزيد، وذلك دليل على المساواة التامة بين الجنسين.

ولقد كان لاختلاط الجنسين في التعليم فضل في منع النساء من التحايل بما يظهرن من مواربة وتمويه لأن ذلك علمهن الصراحة في القول والعمل هذا إلى أن ذلك أكسبهن خبرة بنفسية الرجال فوقفن على عيوبهم وفضائلهم واقتبسن منها الكثير، وللمرأة أن تتقلد في أمريكا أكبر

المناصب والأعمال ولا يحقد الرجل عليها بحجة أنها تزاحمه فميدان العمل يتساوى فيه الجميع.

ولقد أحدث النساء أثراً اجتماعياً عظيماً هناك بفضل الأندية والجمعيات التي شكلت لتحسين الأحوال العائلية والصحبة لسائر الناس، وقد جعلن قيمة الاشتراك زهيدة للغاية حتى أن أفقر النساء يستطعن المساهمة فيها. ومما تقوم به تلك الجمعيات تعلم الجاهلات وتنظف الأسواق وأمكنة الاجتماع العامة والشوارع والحوانيت وهن يدخلن البيوت ويتعهدنها بالنظافة.. وتعليم الأمهات أصلح الوسائل لرعاية الطفل، وتلقى المحاضرات في دور العلم ليلاً ويعمل الأعضاء على تيسير أبواب الرزق للخريجين من الشبان والفتيات، ولقد زاد عدد تلك الجمعيات على مليونين وكل أعضائها من النساء.

ويصف كثير من الناس الأمريكية بأنها خليعة نزقة طائشة وهي حقاً ساحرة في عشرتها، لكن يقول الكثير بأنه جدير بنا أن ندافع عن نزقها هذا فهي لم تتلق قط في تعاليمها بأن الرجل ممتاز عليها كما هي الحال مع فتيات العالم أجمع، فلقد شبت مختلطة معه في جميع أطوار حياتها وساوته في كل شيء فلم تر له تلك الميزة ولم تطبع فيها منذ الصغر تلك العقيدة التي تجعلها تظن أن الزواج المبكر أمر لازم لها وبذلك تضطر بأن ترحب بأي شخص يخطب يدها بل هي تتريث في أمر اختيار الزوج طويلاً..

والزوج والزوجة هناك رفيقان وصديقان، صاحبان حبيبان وليس رب البيت على أي وجه من الوجوه ذلك الطاغية الذي كان يشعر أن الطغيان والسيطرة حق له مطلق. ويقول بعض النقاد أن الزوج العادي في الولايات المتحدة كثير الانشغال بأعماله لا يحفل كثيراً بزوجته حتى أنها تضطر إلى التماس أنواع التسلية في جهات أخرى، وهذا أحد الأسباب التي يرى هؤلاء النقاد أنها تدفع الأمريكيات إلى الانصراف إلى النواحي الثقافية أكثر من انصراف الرجال إليها.

ويسهل أعمال البيت على أكثر النساء: الأدوات الميكانيكية التي توفر العمل في المطابخ ودورات المياه والتدفئة؛ فالكهرباء قد تحولت هناك إلى خادمة تغسل الملابس وتنظف البُسط وتصنع الثلج وتقدد الخبز وتعد القهوة وتقوم بكثير من الأعمال؛ فهناك ما يقرب من ٢٨ مليون منزلا من ٣٧ مليوناً في هذه البلاد تستخدم فيها الكهرباء. وفيما يقرب من ثلث المساكن الريفية معدات كهربائية متوفرة. على أني لاحظت أن أهل المدن الكبيرة في أمريكا رواد فنادق ومطاعم؛ ففي سان فرنسيسكو مثلاً أحصيت نحو ١٥٠٠ فندقا وفوق ٣٠٠ مطعما عجبت كيف تجد من الوافدين ما يقوم بنفقاتها ومكاسبها. لكنني علمت أن نحو ٥٥% من سكان البلدة لا يأكلون في بيوتهم بل في تلك المطاعم هم وعائلاتهم، وكثير منهم ينامون في الفنادق مما كاد يقضي على نظام العائلة وحرمة البيوت المقدسة تلك التي تعد أساسية في تربية النشء وإصلاح المجتمع كله.

حللت هوليوود فدهشت للحياة كيف تسير في تلك الناحية؛ فكنت أرى النساء وقد ظهرن في أزياء الرجال من سراويل وجاكتات وأربطة رقبة وشعر مقصوص (ألاجارسون) بحيث يصعب التعرف إليهن من بين الذكور. أما عن جمال السحن ودلال المشية وفاخر الهندام فذلك لم أره في مكان آخر وكثير من أولئك من سراة العالم أجمع وبعضهم من نجوم السينما الذين طبقت الآفاق سمعتهم ومنهم من وفد من نساء ورجال طامعاً في الغنى راغباً في الجاه ساعياً بجماله وخفة حركاته ورشاقة قده وشجى صوته أنه يصبح في عداد تلك النجوم.

ولا عجب أن تصبح هوليوود بغية الناس من أقصى الأرض. وهل يتاح لهم من المجون ووسائل اللهو والإسراف ما يلقونه هناك؟ وهل في الدنيا غير هوليوود واحدة؟ لكن هوليوود قد جنت في ظني على الجمال الطبيعي فأفسدته ومسخته وجعلته جامدا موحداً إذ ترى نجمات السينما ومن لف لفهم يسرن على نمط واحد في تجميل وجوههن من عيون ورموش وأسنان وشفاه وأظافر وغيرها حتى يبدو وجه الآنسة وكأنه كليشيه واحد طبع على ورق مختلف فلم يترك لكل ضرب من ضروب الجمال شخصيته الممتازة الساحرة.

ويبلغ عدد المشتغلين بالسينما هناك ٢٠٠,٠٠٠ أكثر من نصفهم من النساء ويتطلب إنتاج الأفلام نحو ٢٧٦ صناعة مختلفة تعمل النساء في أغلبها كالإدارة والتمثيل والتأليف وتصميم الملابس وصناعتها ورسم

الصور المتحركة.. آلاف يقمن بالأعمال الكتابية وأعمال البحث هذا إلى إعداد الفيلم والإضاءة وتسجيل الصوت والتصوير.

ويبلغ متوسط من يفد على شركات السينما كل يوم حوالي ٢٧٠ فتاة يلببين الدعوة إلى الظهور في المناظر التي يراد بها تمثيل الأماكن المزدحمة أو الجماهير أملاً منهن في لفت نظر المدير الفني لعل الحظ بذلك يرفعهن إلى مرتبة النجوم. لكن ما أقل ما تتحقق تلك الآمال الحلوة. ويكفي للدلالة على هذا أنه ليس من بين ممثلات هوليوود – واللاتي يبلغ عددهن أكثر من أربعة آلاف – نحو مائة وعشرين نجمة سينمائية وهو عدد ليس بالكثير!!!

ولعل أشنع ما يشين الأمريكية بشرة وجهها التي تعوزها النعومة؛ فهي خشنة تشوبها نقط سمراء وذلك من أثر المبالغة في الأدهنة والطلاء.. أما أجمل ما يزينها فهي سيقانها التي تعد أحسنها في الدنيا وقد قالت الآنسة روبشتاين صاحبة أكبر معهد للتجميل في الولايات المتحدة: "ليس هناك أدنى شك في أنه لو اضطرت محال التجميل والمصانع التي تتيح أدوات الزينة إلى إقفال أبوابها لسبب أو لآخر لحدثت كارثة لا يعلم مداها إلا الله، فستصبح الأمريكية شاحبة الوجه وسيتدلى صدرها بمقدار بوصة إلى سبع بوصات، وسيبرز بطنها وأردافها وسيصبح حوالي ٤٠% من الأمريكيات بلا حواجب على الإطلاق و٣٠% منهن بلا رموش".

والنساء في أمريكا ينفقن ٢,٥ مليار دولارا على تجميل وجوهن وشعرهن، وينفقن حوالي مليار في محال التجميل على تمويج الشعر وطلاء الأظافر والحواجب والمساج في ١٢٠ ألف محل، ونحو ثلاثة ملايين أمريكية يضعن على رءوسهن شعراً مستعاراً، فضلاً عن أن النساء يصرفن على الروائح العطرية وأحمر الشفاه والكريم والأظافر المستعارة وغيرها نحو مليار دولارا وقد أنفقت نحو ٤٧ مليون امرأة أمريكية في سنة ١٩٤٨ على (الكورسيهات والسوتيانات) ٤٢٥ مليونا من الدولارات.

البولينيزية

ثم كانت جولتي بين شعوب بولينزيا المنبثين في أشتات الجزائر التي يغص بها المحيط الهادي في تلك الجهة النائية المنبوذة من الكرة الأرضية – والتي قل أن يتاح لنا الذهاب إليها لبعد الشقة بيننا وبينها – وما كدت أصل أرض زيلندة الجديدة حتى سارعت إلى زيارة شعوب الماروي من سكانها الأصليين الذين اكتسبوا سمعة عالمية في أنهم أرقى همج الدنيا وأكثرهم استعداداً للتحضر وأوفرهم ذكاءً، دخلت أجمل قراهم "روتوروا" فراعتني جموع السيدات يملأن فرندات بيوتهن التي أقيمت من الخشب المخروط وسط أبخرة الفوارات الحارة التي ينفجر ماؤها ويعلو بخارها فيكسو البيوت ويظلمها ويستخدمنه في المطبخ والتدفئة..

وكانت الكثيرات منهن دائبات على الاشتغال بالنسيج والغزل من ألياف الكتان لونت بالأسود والأحمر في أحزمة تلف حول الجبهة والخصر وداليات من عيدان الكتان دقت أجزاء منها في فتل رفيعة وتركت أجزاء أخرى وكأنها قصب الغاب الرفيع، وتلك تلبس من الخصر وتتدلى على الجسد العاري فتروح وتغدو وتعطي حفيفاً مستملحاً يسترعي الأنظار.. أما أعلى الجسد فيترك عارياً، ووجوه النساء سمراء عريضة التقاطيع جميلتها والشعور غزيرة هادلة سوداء براقة ترسلها السيدات إلى ما دون الكتفين. والأجسام أميل إلى السمنة والامتلاء، وفيهن جاذبية

كبيرة وخفة روح لا تكاد تفارق البسمات ثغورهن يسارعن إليك بالحديث والسؤال عنك وعن أحوالك في رقة زائدة ويعيشون عيشة مرحة سعيدة لا يحملون هماً وسواء أكثر رزقهم أم شح فهم سعداء في كلتا الحالتين لا يعبأون بالدنيا وحطامها لذلك لم يعرفوا الألوف من الجنيهات لكنهم يبددون منها في غير حرص ولا شح ولا تقتر.

وتعجبين سيدتي لو علمت أن النساء هناك هن اللاتي أبلين البلاء الحسن في القتال ضد المغيرين على بلادهم من الأوروبيين يوم كشف هؤلاء بلادهم، ولقد أدهشن الغزاة للحرية الفائقة التي كانت تتمتع بها المرأة الماروية هناك؛ فالفتاة هي التي تختار زوجها بمحض رغبتها وهي التي تعلي مرتبة زوجها إذا كانت من طبقة أرقى من طبقته، ويدعي بنوها الرفعة عن طريقها لا عن طريق أبيهم، والعجيب مع ذلك أنهم يكرهون النسل من البنات حتى كانوا إلى عهد قريب يئدون المولودة بمجرد وضعها..

والنساء كلفات بالوشم على الشفاه والذقون، وكذلك الرجال، ولهم فنانون يتخصصون في تلك الصناعة.. ويتنوع هذا الوشم بتعدد طبقات الناس؛ فلكل مرتبة نقش خاص يدل عليها، والقوم يتعشقون الرقص والموسيقى بحيث لا يخلو مجتمع في ليلة ما من استعراض ضروب الرقص التي تعددت أنواعها وتنوعت أغراضها، وهل أنسى رقصة البوي أو الزوارق تعرضها النساء وهن جلوس وراء بعضهن وأرجلهن ممدودة وأذرعهن تلمس الأكتاف يحركن الأذرع والأرجل حركات موجية

جذابة فيخيل إليك أنهن جمع من البحارة يجذفون ويرتلون، وتلك أحب الرقصات إليهم لأنهم اشتهروا بقدرتهم على بناء الزوارق النحيلة وركوبها في عرض المحيط الهادي المديد الرهيب، ثم رقصة الفرح وفيها يقفن صفوفاً متباعدة وكل صف يبدي حركات تغاير الأخر بالأيدي والأرجل صف واقف والأخر راكع أو جالس..

ولعل أعجب الرقصات جميعاً رقصة "الهاكا" تنتهي بوقفة فجائية تلوى فيها السحن وتعوج الخدود وتفتح الأفواه وتخرج الألسن في شكل بشع منفر مزعج، ويصحب ذلك صيحات عالية منكرة، وتحاول كل سيدة أن تكون حركات وجهها مغايرة لحركات الأخريات من جاراتها.. إلى ذلك الرقص بالأرجل وتلك الرقصة يرهبون بها عدوهم أو ينالون منه سخرية وهزؤا ومنها ما يقصد به ادخال السرور على الأحباب والخلان، وتلك من أقسى الدروس التي يدرب عليها أطفالهم ولا يحترم الواحد منهم إلا إذا أتقنها فهي شعار البسالة والقوة؛ لذلك سميت أحياناً برقصة الحرب..

ولقد فني من شعوب الماروي هؤلاء خلق كثير بسبب اضطهاد الغزاة لهم حتى لم يبق منهم اليوم سوى أربعين ألفاً، لكنهم اضطروا أن يهادنوهم ويعيشوا معهم على قدم المساواة بسبب ما لمسوه من قوة شكيمتهم ورقة عواطفهم ورجاجة عقولهم، وقد حاولوا إدماجهم في جنسهم لكن هؤلاء قد احتفظوا بقوميتهم وأخذوا هم يدمجون المغيرين فيهم، فلقد تطبع المغيرون بالكثير من التقاليد والعادات الماروية

وتصاهروا معهم فأصبح لهم طابع جديد يخالف الطابع الأوروبي في كثير من نواحيه، ويرجع الفضل في ذلك إلى نساء الماروي لأنهن حراس التقاليد وحفظة التراث القديم.

ثم أقبلنا على هونولولو في قوس ضيق المدخل تشرف عليه القلاع التي بررت تسميتها بجبل طارق الباسفيك، وكانت جوانب الرصيف وشرفاته تغص بجموع المستقبلات، والموسيقى تعزف نشيد الاستقبال من البرج الشاهق المربع الذي تعلوه ساعة كبيرة، وقد كتب عليه بالخط الكبير (ألوها) أي مرحباً. وما كادت تقف بنا الباخرة حتى هاجمت الفتيات من المستقبلات أحبابهن بعقود الورد يحلين بها رقابهم. وكان باعة العقود من الفتيات ينادون عليها في صيحة جميلة بكلمة (Lei! Lei!)

أخذنا نشق شوارع البلدة، وكأننا نسير في إحدى كبريات مدن أمريكا، وجماهير المارة كثيفة متعددة الأجناس حتى بدت وكأنها بلدة عالمية رأينا فيها أحدث أزياء باريس جنباً لجنب إلى جوار الأردية القومية الهمجية من العشب والقش؛ فالحياة البولينيزية الفطرية تظللها هناك أحدث المدنيات وأرقاها! وكان أجمل النساء وأوفرهن جاذبية البولينيزيات من أهل هونولولو اللائي اكتسبن بحق فخر "أجمل همج الدنيا وأكثرهن رقة وجاذبية" فلقد احتفظن بالجمال الفطري في كامل روعته وبساطته.

وصلنا إلى أجمل شطوط الجزيرة: شط وايكيكي حيث امتدت الرمال البيضاء وأقيمت الفيلات واكتظ الشاطئ بالمقاهي والفنادق في وجاهة فائقة. وقد جلسنا نشاهد أعجوبة الرياضة البحرية فكنا نرى الفتيات تمتطي كل منهن زورقاً نحيلاً أو لوحاً من خشب مدبب الأطراف ثم تحركه برجليها وهي واقفة عليه فيجري الزورق ويعلو ويهبط فوق الأمواج في سرعة وخفة حركة مدهشة، وهي خلال ذلك تميل وتجلس وتنام ثم تعود واقفة، والزورق يجري في اهتزاز مخيف.

أخذنا نوغل في ريف الجزيرة وأعجبنا بقصور سراة الأمريكيات من ذوات الملايين وبخاصة نجوم السينما في فخامتها وتنسيقها وهن يتخذنها مصايف لهن، وقد استرعى نظري جماهير الفتيات اللاتي كانت تغص بهن الحقول في الزراعة وتربية الزهور يعملن في خدمتها، وهن مرحات راضيات جميلات باسمات. والحقول تكاد تسدها الزهور في كثرة لم أر لها مثيلاً في أية بقعة من الكرة الأرضية، وكان أظهرها زهر الهبكس رمز الجزيرة؛ فقد رأيت مئات من ألوانه المختلفة وفي حديقة هاوية اسمها "مدام كوبر" ألفان من مختلف ألوان هذا الزهر، ولا عجب فالنبات يزهر هناك طول العام وتبقى الزهرة يوماً واحداً لذلك تقطع كل مساء وتعد منها العقود ثم تخلي مكانها لزهرة أخرى تظهر في الصباح..

وكانت حقول الأناناس تمتد إلى الآفاق، وهو أجود أنواعه في العالم حلاوة وطراوة وحجماً! وقد زرت مصنعه الكبير هو ومعمل أبحاث قصب السكر، وجُل العمل يقع على كاهل الفتيات وتصدر الجزيرة منهما

بعشرين مليون جنيها كل عام، ثم نبات الموز متعدد الأنواع، ومن العراجين ما يحوي الواحد ٣٠٠ موزة ثم نبات كالقلقاس اسمه "التارو" يسلق كالبطاطس أو يسحق ويعجن لإعداد طعامهم القومي المحبوب المسمى "البوي"، وقد أكلته فألفيته منفراً كأنه الفالوذج بنفسجي اللون في غير حلاوة.

لبثنا ننتقل في تلك الجنة الساحرة، ونمر بشواطئ تلك الجزيرة البديعة وكان القوم نساء ورجالاً يصيدون السمك بالحراب، تنسل الفتاة بين صخور الشواطئ وما أسرع ما تراها تلقي بحربتها الطويلة في الماء فتخرج وقد علقت بها سمكة كبيرة وكثيرات منهن يصدن السمك ليلاً على المشاعل فتعلق الغادة شعلة نار وراء ظهرها وتسير وسط الماء فتجذب تلك الشعلة السمك فيقترب منها وعندئذ تفاجئه بحربتها وتصطاده.

وملابس القوم تحاكي ملاءات الهنود واسمها "هولوكو" يتخذونها من قشور شجرة "تابا" التي تسلخ في قطعة واحدة تصقل وتعطن وتدق، ومن القطع ما يعادل ملاءة السرير كبراً. ولغة القوم موسيقية وعلى جانب كبير من الفصاحة ومن كلماتهم التي لا تزال عالقة بذهني: هي لي ما أي "تعالى هنا" وهولو "غضبان" وما أي كا أي "حسن" وويكي ويكي "أسرع"، والقوم كسائر سكان المحيط الهادي يتعشقون الرقص والموسيقى التي أخذ الأمريكيون ينقلونها منهم في شيء من الإسراف..

وقد حضرت رقصة هولا وأغنية أوكو ليلي وأنا في فندق شط وايكيكي؛ فكانت جلسة ساحرة والرقصة بدت في تمويج الجسم في ثنيات عدة وتحريك الأيدي والأذرع حركات ثعبانية لتجكي حركات الموج وسعفات النخيل إذا ما داعبها النسيم.

قمنا بالباخرة نبرح هونولولو على مضض منا وكان الرصيف مائجاً بالمودعات وبائعات العقود، وقد زين جميع المسافرين رقابهم بعقود الزهر، وموسيقى الميناء تعزف وداعاً وكلما بعدت بنا السفينة عن الميناء أخذ المسافرون والمسافرات يلقون بعقود الزهر الجميلة إلى المحيط حتى لم يخلفوا معهم منها شيئاً، وكنت قد أبقيت منها في عنقي عقدين لم تسمح لي نفسي أن ألقي بهما إلى اليم، وما أشعر إلا وغادة بولينيزية كانت تسافر إلى هوليوود تنزع عني العقدين على الرغم مني، وتلقي بهما إلى البحر، وتقول في نغمة التقريع والنقد: "ألا تريد أن تعود إلى زيارة بلادنا هونولولو مرة أخرى!".. قلت "بلى، فتلك أمنيتي" قالت: "إذن فلم لم تسارع إلى إلقاء عقودك في مياه بحارها؟ فلا تؤاخذني إذن لأني فعلت ذلك نيابة عنك وإشفاقاً عليك"؛ فقلت لها: "لعل الأمل الكبير في العودة إلى زيارة هونولولو تعوضني عما فقدت من تلك العقود البديعة!!"

الهندية

أجل هي الهندية التي تقنع بكل شيء ولا تثور لشيء لأنها ربيبة الحضارات الهندية العريقة. تلك التي تعتز بالمعنويات والروحانيات وتنبذ الماديات والدنيويات. طبعت منذ نشأتها على الطاعة والسلاسة، تبدو مقطبة الجبين جدية المظهر بعيدة عن المرح، لكن ذلك لا ينم عن بؤس في نفسها ولا أسى في فؤادها فتلك طبيعتها. وهل أنسى مبلغ البهجة التي أحسستها يوم نزلت بمباي لأول مرة وإذا بصفوف السيدات يسرن في ملاءاتهن المهفهفة من الحرير الملون المخطط البراق، وكانت كل مجموعة منهن قوس قزح بألوانه الجذابة ووميضه الخاطف بحيث لا يكاد المرء يسيغ لنفسه أن يصرف نظره عن جمال ردائهن الذي أضفى بعض محاسنه على تلك الوجود الذابلة الناحلة، وذلك الرداء هو الساري شعار الهندية على الدوام، والساري هو الزي الوطني للهندية، وهو عبارة عن ست ياردات من قماش مهفهف ثمين من الحرير الطبيعي الزاهي المخطط تلفه حول الجسد من مفرق الشعر إلى أخمص القدمين وبطرق تختلف باختلاف المقاطعات وباختلاف الذوق ودرجة التعليم والتقاليد والشعائر الدينية تربو طرق لفه عندهن في مختلف مقاطعات الهند على خمسين طريقة وأشكال جذابة تختلف اختلافاً بينا.

والهندية وإن كانت سافرة الوجه إلا أنها لا تبيح لنفسها التحلل من قيود هذا الرداء الجميل، وأعجب ما عجبت له أني ألفيتهن جميعاً يسرن

حفاة مهما علت طبقة الواحدة منهن حتى اللاتي يركبن عربات الركشا – تلك المطية الهندية التي يجرها أدمي ويجري بها وهو يلهث من شدة الإعياء – وهن في سيرهن على الأرض يظهرن وئيدات الخطى متريثات في المشية، وذلك رحمة منهن بما فوق سطح الأرض من هوام قد يقتلها الدوس بالأحذية أو تتلفها المشية الهوجاء! وتلك من صميم تعاليم الدين البرهمي دين السواد الأعظم هناك ذاك الذي يعتقد في تقديس الحيوان مهما انحط نوعه، فلقد تحل روح آدمية بعد موت صاحبها جسم حشرة من هاتيك، وتناسخ الأرواح من صميم عقائدهم.

وعلى الرغم من مظهر الحشمة والوقار الذي تبدو فيه السيدة الهندية على الدوام فإنها تميل إلى المبالغة في التزين بالعلامات الدينية وبالحلي خصوصاً في الأصابع جميعاً أصابع الأيدي والأرجل كلها فترى السيدة تمشي عارية القدين تلك المشية الوئيدة المتزنة والخواتم تبرق وتلمع في كل أصبع من أصابعها في منظر خلاب، هذا إلى جانب قطعة الفضة البراقة التي كنا نراها في جانب الشفة العليا وقطعة أخرى على جانب الأنف المقابل.

وما أعجب ما كنت أرى جماهير القسس في مدارس في أرديتهم العجيبة المخيفة ومشيتهم الوقورة المتكلفة يسيطرون على الجميع في كل مكان: في المعابد وفي المتاجر والأسواق وفي الطرقات ولهم سلطان على الناس كبير، يتقاضون من العائلات قروضاً مالية كبيرة تدفع عن رضى وطيب خاطر من الأمهات وبخاصة في مناسبات ولادة الطفل

وغسله بالماء المقدس المطهر وعند حلق شعره وعند تناوله أول لقمة من طعام وعندما يبدأ المشي وفي تمام سن السنة وعند ما يتم السابعة.. وهنا يبدأ تعلمه فيكتب له البرهما بالذهب على غصون يمسكها بطرف والطفل بالطرف الثاني لتسري إليه عن عن طريقها بركته وحكمته، ويكون ذلك في مهرجان كبير إلى ذلك ضرائب مراسيم الزواج وشعائر الوفاة كل تلك حقوق البرهما على البيوت واجبة الأداء كي تكفل العائلة السعادة لها ولذويها في الدارين!

ويوصي الدين البرهمي بأن الزوج إله الزوجة خلقت لسروره وخضعت له، ولا بد أن تطيع حماتها ويا ويلها إن لم تعقب طفلاً ولو عقبت أنثى فإن حماتها تستعبدها، ولذلك كان عدد المنتحرات بين سن ١٤ و١٥ مروعاً كل عام. وإذا مات زوجها كان يتحتم عليها – إلى عهد قريب – وفق التعاليم الدينية المسماة Suttee أن تحرق جثتها معه وإلا كانت موضع اللعنات ولم يبح لها شيء من السرور ولا تتزوج ثانية، بل تحلق رأسها وتقصد إلى أحد المعابد لتظل فيه أيامها الباقية، ويجب ألا تظهر كثيراً أمام الناس لكيلا تؤثر فيهم بنحس طالعها.

وفي ناحية من كل معبد محرق الجثث، وهو بسيط من الأرض تتوسطه حفرة مستطيلة في شكل الجسم يبطن أسفلها بالخشب، وكنت أرى إلى جانبه جثة سيدة لا بأس بملامحها وقد خضبت قدماها ويداها وجبهتها بالحناء ودثرت برداء أحمر، وعلمنا أن هذا دليل على سعد طالعها لأنها ماتت قبل زوجها ولم تصبح أرملة بائسة. كان يحوطها جمع

من أقاربها وبعض النائحات المأجورات وجمهرة من المتسولين وسرعان ما حملت الجثة ووضعت على الحطب وكدس فوقها حطام الخشب، وهنا تقدم أقرب الناس إليها وكان ابنها وأمسك بشعلة وطاف حولها سبع مرات ثم ألقى بالشعلة على كومة الخشب فالتهمت كل شيء ما خلا جزءاً من عظم بعض فقرات الظهر، وتلك التقطها القسيس ووضعها في كرة من طين إلى جانب قطعة من ذهب قدمها أهل الفقيدة وألقاها القسيس في اليم أسفل المكان.

وظلت رائحة اللحم الأدمي تعبق الجو وسط الدخان الكثيف.. منظر مفزع وقفت في جنباته وأنا لا يكاد يستقر بي المكان خوفاً وفزعاً، وقد تلمس في الجو رائحة عطرة هي من خشب العود أو الصندل الثمين الذي يحرق به الأثرياء موتاهم.

وفي المناسبات الدينية تغص المعابد في أرجاء البلاد بالحجاج، ولعل أمتع ما رأينا فيها ضروب الرقص الهندي العجيب القاسي في ثنيات حركاته وعنفها تؤديه الفتيات اللاتي وهبهن آباؤهن منذ ولادتهن لتلك المعابد لتنشأ الواحدة تابعة المعبد تخدمه وتسري عن حجاجه بالرقص البديع والأحاديث الطلية، وفي ذلك عند الآباء جزاء من الله عظيم.

وكان يدهشني منهن حرصهن العجيب على مضض تلك الحياة القاسية المملة ومن آبائهن من هو موسر مقتدر، لكن الإيمان العميق

والتمسك الشديد بتقاليد الدين هي التي تجعل هؤلاء وأولئك راضيات قانعات واثقات من حسن الجزاء.!!

ومما كان يسترعي انتباهي كثيراً هناك الزوجات الصغيرات اللاتي كن يحملن أطفالاً نحالاً هزالاً هم أبناؤهن، وعجبت لما علمت أن زواج البنت يبدأ من سن التاسعة فإن تأخر إلى الثانية عشرة عد بقاء البنت عاراً لا يمحى، ودل على وجود عيب فيها، ولذلك كان بديهياً أن يبدو الجسم ضئيلاً والبنية ضعيفة لصغر السن ولأنها من سلالة ضعيفة مثلها. أما الزوج فقد يكون طفلاً مثلها وقد يكون شيخاً هرماً أنهكت السنون قواه، وفي كلتا الحالتين هو زوج غير صالح إلا لإنتاج نسل بائس ضعيف وهم الزوجين أن يخلفوا من الأبناء ما استطاعوا وبخاصة من الذكور.

والأم لا تجد حديثاً مع أطفالها إلا ما يتعلق بالزواج وتمنياته فتنشط بذلك الميول الجنسية عند الأطفال في وقت مبكر ويفسد ذلك من شأنهم ويخلف أثره السيء في قوى النشء العقلية والجسمية. والزواج المبكر عندهم واجب لأن فيه عصمة من الأمراض وتعجيلاً بالخلف من الذكور ذاك الذي يعده الآباء شرف العائلة. وقد نسي القوم ما لهذا من أثر سيء في إضعاف الذرية وإنهاك القوى الحيوية عاجلاً.

وهم يبغضون ميلاد البنات ويحتقرونه، وقد ينجم عن ذلك أن يتخذ الرجل له زوجة أخرى. وتعدد الزوجات شائع جداً بين الهندوس والمسلمين خصوصاً من الأثرياء. وقد تخطب الطفلة لغلام تتزوج منه إذا

بلغت الرابعة عشرة وكانت من قبل تتزوج في طفولتها لكن القانون حدد السن الأولى للزواج بالثامنة عشرة للذكور والرابعة عشرة للإناث على أن الأبوين لا بد أن يتما الخطوبة قبل بلوغ البنت الحلم ويجب أن يكون الزوجان من طبقة اجتماعية واحدة، والمرأة التي تتزوج رجلاً من طبقة هي أدنى من طبقتها تصبح من المنبوذات وتلك نكبة دونها نكبة الموت!

والفتاة الهندية تجد في الزواج بعض الحرية عن بيت أبيها خصوصاً إذا لم يكن للزوج أم وعندئذ تصبح هي سيدة البيت وكلمتها نافذة على الرجل حتى جرى المثل على لسانهم (بأن الرجل سبع خارج البيت وابن آوي في داخله!). وأول عمل للمرأة الهندية في الصباح أن تغتسل ثم تلبس ملابسها وتضع الطابع الذي يميز طبقتها الاجتماعية فوق جبهتها، ثم تشرع في تنظيف أجزاء المنزل التي لا يصح للخدم – وهم من الطبقة الدنيا – أن يمسسنها خشية تدنيسها، كذلك فهي تقوم بتنظيف الأواني في شيء من التحرج والوسواس الشديد لأنهن يتشككن في كل شيء وفي كل إنسان! ومهما بلغ من سعادتها وانتعاشها لا يصح لها أن تغني أو تصفر أو ترقص لأن ذلك ينال من هيبتها، فهي قسيس الدار تصرف وقت فراغها في تلقين أطفالها أصول الدين.

والعجيب هناك أن المرأة ترحب بالزوجة الثانية التي يتخذها زوجها لأنها ستجد منها رفيقاً يخفف من ألم عزلتها، أما الغيرة على الزوج من الضرر فذاك مالا يجد إلى نفسها سبيلاً، إذ المفروض وفاء الزوجة التام لزوجها مهما بدر منه. وتدهش إذا علمت أن نساء الطبقات الدنيا هناك

أكثر حرية واستمتاعاً من نساء الطبقات العليا وبخاصة الفقراء لأن حالتهم لا تسمح بتعداد الزوجات ولا باتخاذ الخليلات.

تلك حال المرأة الهندية إلى عهدها القريب، على أن السنوات القليلة الماضية قد أخذت تغير من تلك التقاليد وتخرج بالمرأة الهندية إلى ميدان الكفاح والتعليم فظهر منهن كاتبات عالمات مجندات إلى حد أن نفراً ممن زاروا دولتي الباكستان والهندستان أخيراً أوشكوا أن يوقنوا بأن تراث عهد الاستعمار لا شك آخذ إلى الزوال العاجل وبسرعة لا يكاد يصدقها العقل.

اليابانية

ما كدت أطأ أرض اليابان حتى بدت الحياة اليابانية في مظهرها العجيب.. الناس يسيرون في سيل دافق لا تسمع لكثرتهم جلبة ولا ضوضاء اللهم إلا قعقعة قباقيبهم نساءً ورجالاً تلك التي تسترعي النظر وقد تثير السخرية بادئ الأمر، والعجيب أنهم يسيرون بها في سرعة مدهشة وإن اعوجت مشيتهم حتى ليخيل إليك أن في أرجلهم غمزاً. والجميع يلبسون الأردية الفضفاضة (الكيمونو) وكأنها القفصان بأكمامه الهادلة المتسعة وحزامه العريض، والرداء يكاد يلمس القدمين ويغلب أن يكون من حرير مهفهف في ألوان فنية ساحرة، وتحاول كل سيدة ألا تلبس من لون سبقتها إليه غيرها.

ولعل أعجب ما في السيدة حزامها وشعرها أما الحزام (ويسمى أوبي) فبالغ الطول والعرض، عرضه فوق ثلث متر وطوله أربعة أمتار يلف حول الخصر مرتين ثم يربط الباقي فوق الظهر في كشل منتفخ وكأنه الفراش بديع اللون، خلته بادئ الأمر وسادة تحملها السيدة كي تتكئ عليها إذا ما جلست.. وما كان أشد خجلي عندما سألت أحدهم: لماذا تحمل السيدات تلك الوسائد الثقيلة؟ فخبرني وهو يضحك أنه رباط الزينة والتجميل (فيونكة). وقد علمت أن ثمنه لا يقل عن عشرة جنيهات.

والنساء سافرات رءوسهن عارية يكسوها تاج من شعر أسود براق ثقيل، وتراه يكور ويطوى فوق شباك من السلك ثقيل يعنون بتنسيقه العناية كلها وهو الذي يعد مقياس الجاه والجمال، وتراه يكور ويطوى فوق شباك من السلك في أشكال هندسية عجيبة جذابة تختلف باختلاف الطبقات والأعمار. والأغنياء يستقدمون الماشطات في كل أسبوع لتعهده ولا يقل أجرهن عن جنيه، وتظل شباكه قائمة الأسبوع كله لا ترفع ولا تغسل الرأس.

أما الوجوه فمصفرة اللون منحرفة العيون، ويغلب أن يستخدمن الأدهنة البيضاء لا الحمراء، أما الحلي من أقراط وعقود وأساور وخواتم فلا تجد إلى ذوقهن سبيلاً. وجمال الوجوه نادر وإن كانت الرشاقة بالغة الحد، ولعل أجمل شيء في اليابانية رقبتها الممشوقة غير المجعدة، وذلك من أثر نومهم على الوسائد الخشبية توضع الرقبة عليها ويتدلى الرأس من الجانب الآخر.

وعدد الجميلات من اليابانيات لا يزيد على خمس عدد اللاتي في سن النضارة بين الثانية عشرة والتاسعة عشرة وبعدها يظهر عليهم الهرم عاجلاً كالمصريات والإيطاليات وسائر سكان الجهات التي يقصر فيها أمد ضوء الشفق.

آوينا إلى نزل ياباني، وما كادت تقف بنا السيارة أمامه حتى أسرع أصحابه رجالاً ونساءً لاستقبالنا وصاحوا جميعاً صيحة ترحيب أعقبتها

سلسلة انحناءات عاجلة متكررة تكاد تلمس فيها جباههن الأرض احتراماً وتأدباً، والعادة أن يرد الضيف التحية بأحسن منها؛ لذلك أخذنا نحن ننحني مرات كنت خلالها موضع سخرية أمام نفسي لأني لم أكن أدري ما حدودها.

أخذنا مجلسنا القرفصاء من المائدة فتقدمت منا فتاة بكوبين صغيرين من شراب أخضر يعتقدون أنه قاتل للعطش، لم يرقني طعمه، وعلمت أنه مسحوق الشاي يغلي في الماء. ثم دنت منا فتاة ثانية وبيدها سلة صغيرة من خيزران البامبو وبها فوطة مبللة بماء مغلي يتصاعد منها البخار، فتناولناها ومسحنا بها وجوهنا وأيدينا وشعرنا بعدها بانتعاش كبير في ذلك الجو الحار، وتلك تقدم في كل مكان حتى في المحال التجارية. وبعد هنيهة أقبلت فتاة أخرى تحمل الشاي الياباني المخفف الذي لم يكد يصفر ماؤه والذي يتناوله الجميع بدون سكر في قعاب صغيرة مكورة من الخشب الياباني الثمين (اللاكيه). وما كاد يستوي بنا المجلس حتى أقبلت فتاة تهمس في أذني فلم أفهم اليابانية؛ فأخبرني صاحبي أنها تريدني أن أخلع حلتي لأرتدي الكيمونو؛ فقمت وهي تلازمني وتتقدم بنفسها لتخلع عني ملابسي وترخي على جسدي الكيمونو وقد تملكني الحياء.

ولما أن عدت إلى المائدة أقبلت فتاة الحمام تقول إنها أعدته لي فقلت لصاحبي لا حاجة لي به، لكني علمت أن ذلك ينافي طباعهم إذ هم يرونه فرضاً على الجميع أن يستحموا مرة أو اثنتين كل يوم. قادتني

هي وجمع من صويحباتها إلى الحمام، وهنالك دخلت غرفة صغيرة صفت بها الشلت والتكات للاستراحة قليلاً بعد الحمام ومن داخلها حوض الحمام من خشب نظيف يملؤه ماء ساخن جداً حرارته تتراوح بين ٤٠، ٥٠م وإلى جانبه مقاعد صغيرة وأكواز ومناطيل كلها من خشب.

وقفت الفتاة وانتظرت أنا في حيرة حتى تخرج لأغلق الباب، فما كادت تجتاز الباب إلى الخارج حتى خلعت ثيابي وإذا بفتاة تدخل وتنظر إلي وكأنها تريد أن تخدمني في شيء، فجلست خجلاً إلى جوار الحوض ولما أن أدركت ما كنت فيه من ربكة خرجت فأسرعت بدعك جسدي بالصابون، وما كانت أشد دهشتي حين دخلت مع زميلات لها وكأنها شكتني إليهن، فما كان مني إلا أن رميت بنفسي في الحوض رغم مائه المحرق، هنا علت صيحة الضجر لأنه لا يجوز النزول في الحوض مخافة تدنيسه، فكانت مني اعتذارات لا أظن أنها كفرت لديهن عن سيئتي هذه لأني حرمت كل نزلاء الفندق الاستحمام سحابة اليوم حتى يطهر ويجدد ماؤه.

عدت إلى المائدة لتناول الطعام فأحاط بنا الفتيات يحاولن مسامرتنا، وتلك عادتهن في كل مكان حتى في البيوت إذ يجلسن حول الضيف فتيات الدار يسامرنه إمعاناً في التأدب والتظرف. لا يجوز في عرفهن أن يترك الضيف وحيداً لحظة واحدة حتى يحين وقت النوم. وغالب هؤلاء الفتيات من الجيشيات وهي طبقة من السميرات المحترفات لها مدارس خاصة تتعلم الفتيات فيها وسائل السمر وإيناس

الأضياف بما في ذلك الغناء والعزف على الشامسين (العود) والكوتو (القانون) ولا يخلو منهن مجلس قط.

ويحتقر اليابانيون جميع الأوروبيين الذين يصادقون الفتيات ويغازلونهم على قارعة الطريق، وفي الحق لم ألاحظ شيئاً من هذا في الطريق قط رغم اختلاط الجنسين هناك، عكس ما كنت ألاحظه في جميع بلاد الغرب، والرجال في عرفهم أكبر مقاماً من النساء لذلك لا يصح التريض معهن على قدم المساواة. وهم لا يرون رأي الأوروبيين في أن الجنس اللطيف حياة المجالس وروحها، لذلك كثيراً ما كنت أرى جماعات النساء يقصدن إلى الرياضة في غير صحبة الرجال.

أما الرجال فيغلب في رحلاتهم أن يستحضروا الجيشيات السميرات، وكثيراً ما كنت أرى حلقة من الرجال يجلسون القرفصاء إلى جانب غدير أو شجرة مزهرة يشربون الساكي وفي وسطهم السميرة ترقص لهم وقد ينضم إليهم بعض المارة، ولكنهم يرفضون أن يخاصرها الرجل في الرقص لأنهم يستنكرون رقص الرجال مع النساء على النظام الغربي، وفي الحفلات والولائم لا بد من وجود الجيشيات وأجورهن عالية بين جنيه واحد وثلاثة في اليوم.

وأظهر ما يبدو الفرق بين العائلة اليابانية والغربية في الزوجية وميول الإنسان الجنسية، فالغربي يرى أن الحب أساس الرابطة الزوجية وعليه يتوقف صالح المجتمع كله، لكن الياباني يرى أن هذا الحب لا ينطبق

مع المثل الأعلى فله خطره وأثره المدمر، وهو يرى أن العلاقة الزوجية لا يصح أن تبنى على رأي الفرد بل المجتمع فهي إذن ليست عملاً فردياً.

والياباني لا يرى في امتزاج الشبان بالفتيان ذاك المعنى الذي يراه الأوروبي؛ فهو يحتقر ذلك فلا يرقص الذكور مع الإناث ولا يختلطون بهن طويلا، وإذا اعتزم الزواج اختار له ذووه بعد أن يقصوا عليه نبأ الفتاة فإن قبل اتفقا على المواجهة (Miai) في حضرة فريق من أقربائهما، فإن أقرها أنجزت مراسيم الزواج وإن لم نوافقه فلعائلته حق الرفض أو إرغامه على القبول، على أنه كثيراً ما يعشق الصبي فتاة لكن ظروف العائلتين تأبى الزواج فيلجأ الاثنان إلى الانتحار (Shinr)

والغريب في أمر الزواج هناك أنه بعد سنة من عدم الوفاق خلالها، صح الفراق إن رضي أهل الزوجين وإلا لجأوا إلى القانون الذي يبيح الطلاق للجميع فإن رزق بمولود خلال تلك السنة تتبناه إحدى العائلتين أو عائلة أخرى لم تعقب، والتبني شائع في اليابان لضرورة وجود ممثل للعائلة أن أعوزتها الذرية.

ولقد كان للعائلة حق فصل الزوجين رغم ما بينهما من إخلاص، وذلك إذا تعارض هذا الحب مع صوالح الأسرة ولقد أبطل ذلك اليوم لكننا نرى أثره في احتقار القوم للزوج الذي يتفانى في حب زوجته أو يرافقها في ملهى عمومي حيث يصبح موضع تقريعهم وسخريتهم جميعاً.

وعند الزواج يحدد العرافون اليوم خشية نحس الطالع ويقدم الزوج من الهدايا الكثير أما الزوجة فلا تقدم شيئاً وتذهب إلى بيت زوجها عند الغروب حيث تلبس أردية بيضاء ناصعة وترخي على الوجه قناعاً أبيض وتحمل على هودج الكاجا Kaga ومن ورائها حاملو الهدايا، وأكبر الشخصيات هو الذي يحمل برميل الأصداف التي يعمل منها نوع من الحساء يشربه العروسان تيمناً بحياة مستقبلة سعيدة..

وعند وصول الموكب الدار ترفع الأيدي بالمشاعل على جانبي العتبة، وفي كل جانب رجل يسحق الأرز، وبمجرد وصول الزفة يخلط مسحوق الأرز الأيسر مع الأيمن ويتقدم أحد أقارب العروس ويربط طرفي شمعتين ببعضهما ليمثلا ارتباط الزوجين الروحي والجسمي، ثم يشعل ذاك الطرف المربوط ويتقدم رجل ويطفئ اللهب ليدل على أنهما سيموتان سوياً، ثم نعقب ذلك الوليمة التي تصف بها صنوف الطعام والساكي يقدم في جرار علقت عليها فراشات من ورق لتكون بشير الذرية، والزوجان يشربان معاً من إناء له أنبوبتان علامة على التضامن في السراء والضراء، ثم تذهب الزوجة إلى والدي زوجها لتقدم الولاء، والذي يقوم بفرش بيت العروس صديقات الزوج من الفتيات.

وقد يخيل للغريب أن المرأة محتقرة هناك، والحقيقة أنها في دائرة اختصاصها وهي تدبير المنزل وتربية النشء ذات سلطة مطلقة واحترام كبير، أما فيما يختص بالمعاونة الفكرية والعلمية فليس لها نصيب لأن وظيفتها زوجة فحسب عليها أن تطيع زوجها وتحترمه فإذا سار في طريق

لا يصح لها أن تتقدمه.. وفي المجالس تظل هي واقفة وهو جالس وليس لها أن تشاطره وإخوانه بل تقدم إليهم ما يطلبون ثم تنسحب.

ويحب الياباني من الجمال في النساء الوجه الممطوط والجبهة المنتفخة والشعر الذي يخلو من التجاعيد والعيون الطويلة الضيقة والحواجب الرقيقة المشحوذة من الخارج، ويميل إلى الفم الصغير والشفاه الغليظة والرقبة الممشوقة العالية واللون الأبيض الخالي من الحمرة والقوام النحيف والأرداف الصغيرة حتى يتناسب الجسم مع الرداء القومي.. وهو يحب أن يرى السيدة تمشي وهي تميل بأعلى جسدها إلى الأمام قليلاً ويحب فيها المشية السريعة قصيرة الخطى دون أن ترفع القدم عن الأرض بعيداً.

والطفل هناك معبود أبويه يلقى من العناية والاستمتاع ما لا يلقاه زميله في البلاد الأخرى، ولا تحتقر البنت أو تهمل فعند ولادتها يسارع أهلها إلى الإعلان عنها للأقارب والأصحاب ليسارعوا بتقديم الهدايا من المأكولات واللعب والحراير تلف كلها في ورق أبيض، وقلما يبكي الطفل هناك وسرعان ما تترك الأم طفلها لإخواته الكبار يربطونه وراء ظهورهن طيلة اليوم ويسرن به في الطرقات، ولهذا فضل صحي عليه لأنه يظل في الهواء الطلق أغلب أيام حياته، ويقيمون للأطفال حفلة عيد الميلاد يوم ٣ مارس للبنات (حفلة هينامتسوري) ويوم ٥ مايو للذكور وهما من أمتع الحفلات التي يراها السائح هناك.

الصينية

الصين بلاد المتناقضات رقعتها تكاد تعادل قارة أوروبا مساحة وتفوقها أضعافاً مضاعفة في خصب تربتها وفي قدرتها على الإنتاج، ومع ذلك فإني لم ألمس هناك سوى الفقر ورقة الحال في طول البلاد وعرضها. وكنت أسائل نفسي مندهشاً: هل يعقل ألا تفي موارد تلك البلاد الغنية بمطالب أهلها؟ لكن ما العمل إذا كان هم كل فرد في الصين أن يبكر بالزواج كي يلد أكبر عدد ممكن من الأبناء يحيون ذكراه ويوفرون له السعادة بما يقدمون من قرابين! وحتى أولئك الذين لا يستطيعون الوفاء بهذا بسبب فقرهم يصبح فرضاً محتوماً على المحسنين من الموسرين أن يعينوهم بمالهم حتى يستطيعوا إنجاز ذلك.

ومن لم يعقب اضطر إلى الزواج مثنى وثلاث ورباع وقد يزيد، ومن لم يوفق يتبنى من ذرية الغير. لذلك كثرت ذراريهم لدرجة جعلت تنازع البقاء من أجل كسب الرزق قاسياً ممضاً. هذا إلى إغفال شأن المرأة في كل شيء مع أنها في البلدان الناهضة عماد التقدم يقع على عاتقها الأخذ بناصر الأسرة وتنشئة الجيل تنشئة قوية صالحة.

ولا أزال أذكر جولاتي في شوارع شنغهاي (مدينة الشيطان أو باريس الشرق) كما يلقبونها إذ كنت أرى الجماهير الدافقة متلاصقة متلكئة في مظهرها الصيني العجيب: عيون منتفخة وخدود ناتئة وأنوف

فطساء، وأفكاك بارزة وقامات قصيرة وشعر أسود هادل براق. أما الهندام فللأغنياء والمتوسطين متشابه وكذلك للرجال والنساء وإن كان هندام الرجال أكثر جاذبية، والرداء قطعتان: سروال يربط فوق العرقوبين وهو للنساء أقصر قليلاً لكي يظهر جمال الأقدام الصغيرة المشوهة وتعلوه شبه (جاكتة قصيرة) وفوق هذين جلباب فضفاض طويل الأكمام مفتوح من جانبيه إلى ما تحت الساعد ويشتبك طرفاه بالأزرار وله ياقة عالية تأخذ بمخنقهم رجالاً ونساء، ويغلب أن يكون من حرير ثمين للأغنياء وتطوى أطراف الأكمام لتقوم مقام الجيوب وإلا حملت الواحدة منهن أشياءها في منديل قد يتبعها به خادمها.

أما الأحذية فمن قماش لا يقي القدمين شر الرطوبة، ولعلها اختيرت كذلك لكيلا تشجع على المشي ذاك الذي يعد لديهن عيباً يلجئهن إليه العوز. وغطاء الرأس قلنسوة من حرير أما الفقراء فرداؤهم كأنه البيجاما الفضفاضة من قماش أسود لامع كالجلد.

ومن المناظر التي كنت أتألم لها طوال الطريق السيدات اللواتي كن يسرن في تثاقل وئيد، والواحدة تكاد تترنح ولا يتزن جسمها فوق قدميها اللتين لا تزيدان على سبابة اليد طولاً وقد انحبس نموها ونمو عظامها فكان يخيل إلي أنهن يسرن فوق عصي خشبية دقيقة جامدة، وكأن ذلك قد أثر على الساق نفسها فدقت من أسفلها ونحفت إلى حد مخيف، ويا ويلها إن حاولت الجر، فإنها تتعثر بشكل بشع والألم يبدو على وجهها، ويكاد يكون نصف نساء البلاد من هذا النوع.

والأقدام الصغيرة كانت آية الجمال لديهم فكان يحتم الزوج أن يرى حذاء خطيبته قبل الزواج، فإن ظهر بعد أن قدم العروس كانت أكبر من الحذاء الذي أخذه رهينة جاز له الطلاق؛ لذلك كانت الأمهات يبالغن في تشويه أقدام بناتهن وهن صغار فكانت تغسل الأقدام بالماء الساخن ثم تلف حولها أشرطة من الكتان لفائف معقدة محكمة، وفي كل ليلة تعيد الأم هذه العملية لمدة ثمانية عشر شهراً والبنت تتأوه في ألم شديد والأم تسترضيها بالهدايا وتمنيها بزواج قريب. ولقد حرمت الحكومة اليوم ذلك وفرضت عليه عقوبة قاسية على أن كثيراً من الأمهات يثابرن على تلك العادة الضارة. ولا يزال الشبان يؤثرون في السيدات الأقدام الصغيرة كما ثبت لي من محادثة الكثير منهم.

ونظام العائلة في الصين يبنى على الرهبة فالرباط العائلي توثقه التقاليد والدين والقانون إلى حد جعل الإخلاص للعائلة دون غيره واجباً مقدساً. وقد قضى هذا على التعاون بين العائلات فلم يحدث في تاريخ الصين أن أبناءها وبناتها جميعاً تعاونوا مرة على إصلاح بلادهم في أية ناحية، ولذلك ثبتوا عند تأخرهم القديم. ولعل أسوأ أثر لتلك العزلة وذاك النفور القائم بين العائلات قتل الشعور الوطني إذ لا يضحي الصيني بصوالح عائلته الخاصة في سبيل الصالح القومي العام، ولهذا لا تعطف مقاطعة على غيرها من جاراتها مهما أصابها من نكبات، ولم يؤلفوا جبهة متضامنة ضد المغيرين والمعتدين سواء من الداخل أو الخارج. ولهذا ليس بعجيب أن كانت البلاد كلها وخصوصاً المدن الكبيرة نهباً للأجانب: هذا حي فرنسي وذاك إنجليزي وثالث أمريكي ورابع ياباني،

وهكذا.. ولكل بوليسه وحرسه ونظامه ولغته وبريده. فالعائلة أساسها الأب وهو شبيه بالأدلة، سلطته لا تعارض حتى لقد كان من حقه بيع أولاده وقتلهم، أما الأم فكمية مهملة ليس لها على أولادها الذكور سلطان حتى إذا شب الولد لا يسمع إلا لأوامر أبيه. أما البنت فمضطهدة بائسة دليلة حتى إن الولد لا يسأل أذكراً رزق أم أنثى بل أدرة أم طينة؟ والزواج هناك مبكر جداً والعزوبة تكاد معدومة لأن البقاء هكذا جريمة اجتماعية في ظنهم والقاعدة الزواج من واحدة لكن للزوج الحق في اتخاذ ما شاء من الخليلات على قدر ثروته فكلما كان غنياً فاخر بكثرة محظياته وبيوته التي ينفق عليها وكثيراً ما عرفناه من السراة من يحرز عشرة نسوة. والزوجة الرسمية يدفع لها مهر بنسبة ثروتها ومتوسط المهر مائتان من الجنيهات، وإذا ما دخلت بيت زوجها دفعت مبلغاً مساوياً له ويتسلم الزوج المبلغين لاستثمارهما، والعادة أن العائلات الكبيرة ترفض أن تعطي فتياتها كخليلات مهما كان مركز الزوج.

وإذا مات الزوج لا تتزوج أرملته بل تظل هكذا طول حياتها. أما الزوجة فإن ماتت فللزوج أن يتزوج من غيرها يغلب أن يقع ذلك عاجلاً. والميراث يقسم بالتساوي بين الذكور من الأبناء سواء في ذلك أبناء الزوجة الشرعية وأبناء الخليلات، أما الإناث فلا يرثن إلا إذا أوصى الأب بغير ذلك.

والزوجة خادمة لزوجها ولأمه لا يتحسن مركزها إلا إذا أنجبت ذكراً فإن خلفت أنثى فيا ويلها. والمرأة العقيم يحسن طلاقها وإلا تبنى الرجل

أحد أقربائه. ولا يتنازل الزوج فيجلس مع زوجته وأولاده إلى مائدة الطعام رغم ما لهذا من الأثر الطيب في تربية النشء، كذلك لا يجوز أن يأكل الإخوة مع الأخوات إذا ما بلغوا سن السابعة. وإذا أحصى رب العائلة أفراد أسرته أهمل عدد الإناث. ونساء الطبقة الراقية محجبات لا يخرجن إلا محمولات على الكراسي المعلقة. ويخال البعض أن ذلك راجع إلى عادة تصغير الأقدام التي تعوقهم عن المشي.

وعندما يرزق أحدهم بمولود يطلق البخور أمام الدار وتعلق علامة خاصة ثم يدثر الطفل بثياب آبائه لمدة شهر كي تتسرب إليه فضائلهم، وبعد الشهر يحلق شعره ويلبس ملابسه الحمراء، ويؤخذ رأي المنجمين في اختيار طالع سعيد، وعندئذ تقام وليمة يقدم فيها النبيذ والبيض المخضب باللون الأحمر وترسل بيضة لكل مدعو، وعلى هؤلاء تقديم الهدايا والنقود.

والعجب أن الطبقات الفقيرة التي لا تكفيهم مواردهم أن تمون عائلة كبيرة يتخلصون من بناتهم وقد اعتاد الخيرون من أصحاب الملاجئ أن يتسلموهن وينقلوهن إليها أو إلى الأديرة لتربيتهن. وكان ميلاد الأنثى يعد عاراً كبيراً ووزراً يجب دفعه، ولذلك فكثيراً ما كانت الأمهات يتخلصن من بناتهن بالبيع لنوع من الرق والعبودية لا يطاق. ومن العادات المحبوبة لديهن ترك أحد أظافر اليد يطول إلى مدى بعيد ليكون دليلاً على ترفع الغادة عن كل عمل يدوي، ذاك الذي يحتقر منهن جميعاً ويدل على ضعة الأصل. ولم يكن يباح للبنات دخول المدارس

قبل سنة ١٩٢٤ ومما يؤسف له أن الأغنياء إذا أرادوا تعليم بناتهم أرسلوهن إلى الخارج وبذلك يفقدن قوميتهن وآدابهن.

وعند الزواج يستعينون بالخاطبات وقد تخطب الفتاة في سن الطفولة ولا يمكن فسخ الخطبة مهما طرأ من عقبات، وإلا يباح للبنت الخروج أو الاتصال بالغير ما دامت مخطوبة، ولا يصح أن يرى الخطيب عروسه قبل الزواج، ولا بد أن يجهزها أبواها بالمتاع والأثاث الفاخر وتقام الحفلات في إسراف شديد تفاخراً، هذا خلاف المهر الذي يدفعه الأب لابنته.

وفي وليمة الزواج يقدم الضيوف الطعام والهدايا بكثرة وتحمل العروس على الكرسي المعلق وتلبس أفخر الملابس وترخي على جسمها قناعاً أحمر من حرير. وسرعان ما ترغب في الحمل وبذلك لا تكاد تهنأ بشبابها. ولعل أسوأ عادات النساء الانتحار فالآنسات يأتين ذلك إذا ما تأخر عنهن الزواج وذاك يعد عاراً كبيراً الموت أهون منه. وكثير من الزوجات الحديثات يقدمن عليه تخلصا من سوء معاملة أحمائهن. على أن الصينية في جميع الظروف تعرف بعظيم جلدها على احتمال المكاره وطاعتها العمياء وإخلاصها الشديد لزوجها مهما صدر منه لأبنائها الذكور الذين تتيه بهم فخراً على الآخرين كما أنها توضع في مقدمة ربات البيوت في الدنيا خدمة لها وكداً ونصباً، ورعاية لأطفالها على كثرتهم وعلى ما يتطلبون من جهد وعناء.

الزنجية

لعل أمتع رحلاتي جميعاً وأعمقها أثراً وأجلها عندي ذكراً تلك التي قمت بها في بلاد الزنوج من أعالي النيل إلى أقصى القارة الإفريقية جنوباً، ومن كردفان ودارفور إلى نيجيريا وشواطئ غينيا غرباً. وهل تغيب عن ذاكرتي تلك الشعوب البكر ذوات الفطرة السليمة والسذاجة الطاهرة والطبيعة غير المتكلفة التي لم يفسدها دخيل من حضارات الغرب والشرق، تلك التي اتخذت المادة رائدها والزيف والتمويه دليلها فالمرأة لا تعمل هناك إلا بوحي فطرتها وليس للصنعة أو التعمل في تصرفاتها من أثر مهما تعددت القبائل وتفرقت. كنت أرى النساء بصدورهن البارزة إلى الأمام وأعجازهن المنتفخة إلى الوراء وعلى ظهورهن يعلقن أطفالهن وكأنهم صغار القرود بعيونهم المستديرة السوداء الغائرة ورءوسهم المستطيلة ذات الشعر الفلفلي والناصية المدببة والجبهة المتحدرة البارزة.

والزعماء والأغنياء عند شعوب البانتو يتزوجون أكثر من سيدة، والزوجة الأولى تسمى اليد اليمنى والثانية زوجة اليد اليسرى، وهناك الزوجة العظمى وابنها وارث أبيه، وهذه الزوجة تأتي متأخرة في العادة، أما أولاد الزوجتين اليمنى واليسرى فيعطون رجالاً وقطعاناً ليؤلفوا عشائر جديدة تنضم إلى القبيلة.

وفي مقاطعة كينيا تقطع الحكومة الناس أرضاً مقابل دفع ضريبة بسيطة، لأعلى الفدان بل على كل كوخ بمعدل جنيه وتصف في العام. ولما كان الرجل يتزوج بما لا يقل عن خمس نسوة اضطر أن يدفع الضرائب مضاعفة بقدر ما يمتلك من بيوت، وهذا ما يدفع أولادهم إلى العمل لكي يحصلوا على الضرائب المطلوبة منهم وعلى مهور زوجاتهم، وفيما عدا ذلك لا حاجة لهم بالمال.

يسيرون عرايا: نساء ورجالاً إلا في إزار من جلد قصير غير منتظم ولا يرون عيباً في ظهور كل أجزاء الجسد عارية. وكنت أرى النسوة يلبسن في سيقانهن الحجال من النحاس أو الفضة في أساور أو ثعابين قد تبلغ العشرين تحت بعضها أسفل الركبة وعند العرقوبين لغير المتزوجات وفي الأذرع دون الأرجل للمتزوجات ويعلقن حلقات ملونة كبيرة من الخرز تحت الأذن.

وأقوى القبائل شكيمة هناك المساي ونساؤهم يغطين أجسادهن بأطواق النحاس في البطن والخصر والسيقان والسواعد والرقاب في أوزان مبهظة ولا تعد السيدة من النبيلات إلا بكثرة تلك الأطواق ومن أسوأ عاداتهم تخضيب حراب المقاتل الحديث بدماء الغير، والنساء هن اللاتي يشجعنهم على ذلك لأنهن يسخرن جماعات من كل مقاتل لم تخضب حربته ويعرضن عن الزواج منه.

وكنا نرى النساء نشيطات في الزراعة يتعهدن الموز والبطاطا والتابيوكا وبعضهن ممن جاوروا مزارع القطن كن يلبسن ملاءات بيضاء تدثر الجسم كله من أسفل الثديين أما فوق ذلك فيترك عارياً، وآية الجمال عند الكثيرات منهن السمن المفرط الذي تسعى إليه السيدة حتى لا تكاد تستطيع السير، ولكي يرغبن الأزواج فيهن يعملن على تضخيم أجسادهن فيتمنعن عن المشي ويكثرن من شرب اللبن، لذلك فقدت الكثيرات منهن بعد الزواج القدرة على النهوض والمشي، وحتى في الرقص كن يحركن أذرعهن وعضلاتهن وهن جلوس.

والزواج هناك من سن العاشرة والبنات يبلغن الحلم مبكرات، والأب يؤثر الذرية من البنات لأنه يتقاضى عليهن مهوراً عند زواجهن. وما كان أشد دهشتي وأنا على نيل ألبرت حين رأيت الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ومن بينهم النساء وقد تضع المرأة المحتشمة حول خصرها عقداً نحيلاً من خرز تتدلى منه ورقة موز تستر بها العورة.

وثروة الرجل تقاس هناك بقطعانه وعدد بناته اللاتي بلغن الحلم لأنهن يمهرن عند زواجهن بين ثلاثين بقرة وأربعين على حسب جمالهن، ولما كانت المرأة عرضة للبيع هكذا حرمت من الميراث. والرجل لا يرغب في الطلاق مخافة أن يضيع عليه ما دفعه مهراً من البقر وعلى ذلك فالبقر عندهم أهم من النساء لأنه معيار التبادل فهو مقدس لديهم. وكلهم كلف بالتدليك الذي يقوم به الخدم للزوجة والزوج كل ليلة وبعد

تعهد كل عضلات الجسد بالأدهنة المختلفة تقوم المرأة وتشعل النار وتطلق البخور استعداداً للنوم.

ومما يعانيه شباب الشلو الاختبار الذي يجرونه كي يحرزوا لقب المقاتلة في سن الخامسة عشرة، فيصحب كل واحد منهم صديقته إلى جانب النهر وتمسك كل صديقة برأس صاحبها وتميله نحو الماء وتأخذ في تشجيعه على أن يحتمل ما سيحل به من ألم، وسرعان ما يجيء الطبيب ويشق جبهة الغلام بمدية حادة، ولا يجرؤ واحد أن يتأوه وإلا كان عاراً كبيراً، وبعد ذلك تغسل له الفتاة الدم في النهر وتنتهي الحفلة بشرب المريسة.

ولإعداد المريسة توضع بعض الذرة في سلة مع مزيج روث البقر (المنفحة) وتغمر في ماء راكد لمدة أسبوع حتى تتخمر ثم تنقل إلى جرة من فخار وتغلى في الماء ويؤخذ السائل العلوي ويبرد ثم يشرب وكلما نقص زيد ماءاً وأعيد غليه، وهذا الخمر قوي مسكر وتكثر حفلات الرقص بعد شرب المريسة في الليالي القمرية خصوصاً ليلة العيد، وكلهم يرقصون والحراب في أيديهم ويقدم القوم طبولهم المزعجة وسط القرية التي تتجمع بيوتها في شكل دائرة تتوسطها ردهة فسيحة، وكلما اختلفت قرعات الطبول اختلفت حركات الرقص ودلت على الغرض منه أهو رقص للمطر أو الحرب أو الدين أو الفتيات أو الموت..

ورقصة الفتيات تبدأ بعد بزوغ القمر والغرض منها تعارف الفتيان بالفتيات، فكنا نرى الفتيات قبل الغروب فرحات مرحات انتظارا للقاء فتيانهن، يصرفن ساعة في تعهد شعورهن ولبس جلود القطط والقرود والنمور والتحلي بصدف الخرز والودع. ثم تفد جموع الشبان والشابات وتصف جرار المريسة في أحمالها الكبيرة وسط الدائرة وإلى جانبها أطباق من الذرة واللحم نصف المطبوخ، فإذا بزغ النور ظهر الشيوخ من النساء والرجال في دائرة ومن داخلها جماهير الشباب من الجنسين ثم يقبل الزعيم يحوطه أتباعه يحملون الطبول والمزامير، فينصت الجميع ويتداخل الفتيان والفتيات في صفين ويرتلون أغنية وما تكاد تنتهي حتى يعلو قرع الطبل وتموج صفوفهم وبأيديهم الحراب التي تتلألأ في ضوء القمر.

ويتقدم كل شاب في صف الشبان إلى فتاة في صف الفتيان وترفع السواعد ويقفز كل اثنين قفزات منظمة لكن دون أن يلمس الفتى خليلته، والفتيات يظهرن دلالهن ويحاولن أسر الرجال واستمالتهم بما يفوق ما تأتيه المرأة الغربية (كأن ترفع قطعة القماش المهفهف عن ثدييها الكاعبين ثم تعيدها، وما يكاد الليل ينتصف حتى تكون المريسة قد أخذت بلبهن فيختلط الحابل بالنابل وينسحب الزعماء تاركين المجال للشباب) وبفضل هذه الرقصة تتعرف الفتاة بالكثير من الفتيان ويجب أن توافق الفتاة على الشاب الذي يريد أن يتزوجها وهي تحب فيه أن يكون غنياً بقطعانه ومزارعه، والعجب أن الفتاة تفضل الزوج الذي يستطيع بماله أن يشتري زوجات كثيرات غيرها!

وفي حفلة الرقص يقود الأخ أخته والخجل يبدو على وجهها، وهناك يسألها الزعيم أن تعترف بجميع صلات الحب مع فتيان آخرين من قبل، وهي تخشى ألا تقول الصدق لأن الأخبار كلها تصل الزعيم أولاً بأول: وبعد تلك المداولات بين الزعماء والعروس تقرع الطبول فينصت الجميع وهنا تكرر الفتاة ذكر أسماء الفتيان الذين أحبوها من قبل فيحضر كل منهم إلى وسط الدائرة ويحكم عليه بغرامه من الماشية والأغنام ومتى جمعت تلك القطعان قدمت كلها مهراً للزوج أما الفتاة فلا عقاب عليها متى صدقت في الاعتراف ومتى أقر الزعماء ذلك ولا عار على الفريقين؛ فالاعتراف من جانب الفتاة والغرامة من جانب الفتى عقاب كاف وترضية حسنة.

وعند قبائل الياروبا من سود نيجيريا يتزوج الرجل من عشرة نسوة أو يزيد ويؤثر عليهن واحدة تعد رئيستهن يحترمنها ويركعن أمامها، ولا تغار الواحدة من الأخرى لأنها ألفت تعدد الضرائر في بيت أبيها من قبل. وقد ركبت معي في القطار عائلة كانت نساؤها تتزين بالبدرة البيضاء في غير صقل وبالأقراط والشعر المجدول فواحدة منهن كانت تجدل شعرها في شكل عصي قائمة كأنها المسامير الكبيرة منثور في الرأس كله والأخرى تجدله في أقنية متوازية من مؤخر الرأس إلى مقدمه. وقد ابتاعوا من المحطات لفائف من ورق الموز في بعضها أرز معجون وفي البعض معجون الذرة يضعون عليه زيت النخيل الأحمر ويأكلون بكامل أصابعهم في شكل منفر ولا تفتأ الواحدة تختم الطعام بثمرة الكولا وكأنها (الفول

النابت) تقرضها تحت أسنانها وتظل تمتص عصارتها المخدرة وتبدي من حثالتها القذرة فوق شفتيها وأخيراً تبصقها على الأرض.

وإلى شمال أولئك شعوب (الهوسة) وجعلهم مسلمون بيوتهم أنظف من بيوت أهل الجنوب الوثنيين وسحن النساء بها مسحة من جمال وبخاصة العذارى من الغانيات وهن يلبسن الأردية التي تغطي الجسد من دون الثديين فيبدو الصدر كله عاريا، أما الزوجات فأرديتهن تغطي الجسم إلى ما فوق الثديين. وللأغنياء أن يتسروا فوق الزوجات الشرعيات الأربع اللاتي لا يخلو منهن بيت، ولذلك لم أعجب لما علمت أن البعض له من الذرية زهاء الستين بين ذكور وإناث. ومن أغرب عاداتهم أن المولود (البكري) الأول يهمل أمره ولا تعنى الأم به وإذا ما كبر لا يقابل أباه مطلقاً ولا يجلس معها على مائدة الطعام، ولقد حرت في تعليل ذلك ومن قائل لأنه وليد عهد الجهالة الأولى يوم كان الأبوان ولا هم لهما إلا إشباع الشهوة البهيمية لذلك نظر إليه الأبوان بشيء من الازدراء!

وهم يعدون السمنة وضخامة الجسم من أكبر علامات الجمال ذلك أن المرأة كلما تضخم جسمها دل ذلك على جودة التغذية وعلو بيئتها وزيادة ثروة زوجها؛ لذلك نجد في بيوت الزعماء والأغنياء أخصاصاً تحجز فيها الفتيات وتضاعف تغذيتهن ويمنعن من الحركة والعمل اليدوي يزيد ذلك في امتلائهن، ويغلب أن يبدأ ذلك قبل الزواج ببضع سنين. وأحب طعام لديهن (الفورا) وهي عصيدة من دقيق الذرة

تكدس وسط الإناء ومن حولها سائل من زيت النخيل. كذلك الفول السوداني مع البطاطا يدقان ويعجنان سوياً ويكونان طعاماً شهياً، وهم يبيعون نوعاً من اللحم ضغط بالدقيق وقدد على الشمس فبدا رقائق مجزعة مصفرة منفرة، وفي الأسواق كنت أرى شاوي اللحم يقيم أسياخاً متجاوزة في الأرض بها قطع اللحم يشعل تحتها النار ويجلس النساء من حولها يأكلنها وكأنه الحاتي عندنا.

وفي البيوت كنا نرى في كوخ الأم "عنجريبا" أو اثنين وفي الركن الآخر الأرجوحة التي يسمونها (الطوطحانية) وهي للأطفال. وأمام كل كوخ كنا نرى الفتيات وأمامهن قطعة كبيرة من الحجر صقل جزء منها في شكل منحدر ويسمونها (مرحاكا) وتمسك الغادة بصخرة ثقيلة مستديرة تسحق بها الذرة أو الدخن وهي تعد منها القدر المطلوب لطعامهم يوماً فيوماً، ومثل هذا تماماً رأيناه من قبل بين أكواخ كردفان من غرب بلاد السودان.

المصرية

في هذه الفترة المضطربة من تاريخ البشرية يصعب على الباحث المدقق أن يرسم معالم مميزة أو ملامح واضحة لأي شعب من الشعوب. فقد عودتنا الحروب المتوالية أن تأتي في أعقابها بانقلابات في الأنظمة والأفكار والتقاليد تستغرق في العادة فترة من الزمن حتى تذكر وتأخذ صفة الحقائق الثابتة المعترف بوجودها في كل زمان ومكان.

على أن حقائق بعينها قد أفلتت من حكم ذلك المقياس الدقيق وفازت بصفة الاستقرار المطلق من كل قيد خاص بالزمان أو المكان وأعني بها طائفة المسائل المتعلقة بالذاتيات أو الكليات التي لم تبق موضعاً لخلاف، وفي جملتها الغرائز والأوصاف الثابتة المتعلقة بطبيعة المرأة في كل شعب وجيل.

وإذا كانت الغرائز هي المحرك الأول في معظم تصرفات هذه المخلوقة التي تستمد وحيها من نفسها أو من إلهامها – حسب التعبير الأصح – وطبقاً لما هو معروف من قرب عهد الحركات النسائية – التحريرية – بالظهور في مختلف الأمم. فقد ظل التفاهم قريباً في طبائعهن سليمة – على قدر الإمكان – بعيدة عن تقلبات البيئة في

مختلف العصور، الأمر الذي جعل منهن في نظر التاريخ. حارسات أمينات لأخلص التقاليد القومية في مختلف البيئات. وبالتالي فقد حفظت المرأة على مدى الدهر أسمى وظيفتين حفظ النوع والتراث معاً.

وثمة ميزة أخرى لهذا التآلف والامتزاج بين ممثلات الجنس اللطيف في مختلف الدول فيما أدت إليه هذه الوحدة الجنسية بين قلوبهن، من تحقيق مطالبهن العامة في الاعتراف لهن دولياً بالمساواة بمجموع الرجال، وهو ما نص عليه صراحة في ميثاق سان فرانسيسكو وأقرته هيئة الأمم الديمقراطية المتحدة وفي جملتها مصر.

وقد وصلت المرأة إلى هذه الخطوة، التي اعتقد أنها تقدمت بالبشرية كثيراً في سبيل الاعتراف بكيان نصف المجموع البشري وآماله بفضل مثابرتها على الكفاح مدى قرن ونصف تقريباً من الزمان – هو تاريخ الحركات النسائية التحريرية في العالم على وجه التقريب – ونشاطها في عقد المؤتمرات الدولية التي كان آخرها المؤتمر النسائي الديمقراطي الذي انعقد في باريس منذ أكثر من عام، والذي اشتركت فيه مصر بدورها بطائفة من شاباتها الممتازات عضوات "رابطة الفتيات المصريات" وفي طليعتهن الآنسة المهذبة "إنجي أفلاطون"، وإن بقيت قوانيننا على الرغم من كل هذا خلوا حتى الآن من كل إشارة إلى الاعتراف بحقوق المرأة السياسية وعلى رأسها: ولاية الحكم، والنيابة عن مجموع الأمة، والتصويت في الانتخابات العامة.

لماذا تأخر الاعتراف للمرأة بالحقوق السياسية في مصر؟

وبالتالي لماذا تأخرت الحركة النسائية عندنا عن مثيلاتها في الدول الغربية؟

هل نرجع السبب إلى نقص في المدنية المصرية؟

أم إلى قصور في الخلق المصري.. والعادات التقليدية عندنا؟

أما عن المدنية، فلا أعتقد أن الغرب قد أتى منها بجديد لم يبلغنا نبأه بفضل موقعنا الجغرافي الذي لا نحسد عليه في ملتقى القارات الثلاث، والذي قضى علينا بأن نكون أول مهبط لكل حركة فكرية في الشرق والغرب معاً.

وجدير بي أن أسجل هنا أن الكرم المصري التاريخي لم يرفض أي رعاية الأم لطفلها الوليد، بل الوحيد، حتى كادت أن تقضي على كل تراث في تاريخنا المجيد.

وأما عن الخلق المصري، والعادات التقليدية عندنا، فذلك ما لا أخال الباحثين والمؤرخين إلا يقرونني على أنه معظم السبب في تأخر الحركة النسائية في مصر.

وقبل أن أنتقل إلى هذه الناحية في الحياة المصرية، أحب أن أؤكد لكل مطلع ومطلعة على هذا الكتاب أنني لا أعني بأكثر من المشاهدة

وتسجيل الحقائق.. وللمناقشة بعد ذلك متخصصون أترك لهم مهمة البحث وتقديم الحلول..

الخلق المصري

لست أجد في الخلق المصري الأصيل إلا كل مدعاة للتقدير والاحترام فتلك الصراحة المسيطرة على تصرفاتنا، والهدوء الكامن في داخلية أنفسنا، والاحترام التقليدي في طبائعنا للعقائد والأنظمة، والعمق الذي مكن لهذه العقائد والأنظمة من التغلغل في حياتنا منذ فجر التاريخ.. كل ذلك أدى إلى مرح واستبشار في كافة مظاهر تفكيرنا، وميل إلى المنطق والملاينة في أساليب معاملتنا، يكون الخلق المصري التقليدي الذي لا تزال ملامحه قريبة شبه بالوضوح في البيت المصري العريق الذي لم تخالطه الأنساب، ولا المدنيات أو التطورات.. وإن كان العثور على مثل هذا البيت من الصعوبة بمكان، وعلى الأخص في العواصم والشواطئ التي واجهت الغزو المستمر الذي يكون تاريخ مصر منذ عهد البطالمة حتى الآن.

وقبل أن أترك هذه الناحية، أرى لزاماً عليّ أن أسجل في هذه المناسبة أن ما قدمت في الخلق المصري يمثل أرقى المميزات لأرقى الفضائل الإنسانية في مختلف العصور.

ولعمري لن نجد أية صعوبة في تلمس هذه المميزات التي تتجاوبها النفس المصرية فيما يخالطها من أصداء، وحنين إلى كل ما هو مصري من أساليب المعاملة والتفكير.

وعندي أن هذه المميزات بعينها هي التي مكنت للغزو الخارجي من تلمس الأسباب في طبيعتنا المسالمة التي لا تتعجل البت في الأمور، ولا تثور إلا في وجه ما يمس الصميم من عقيدة أو تقليد.

ومن هنا أستطيع أن أقول أيضاً أن الغزو الخارجي قد وقف في تاريخنا عند حد الماديات التي لم تمس المعنويات ولا الروحانيات في تفكيرنا في كثير ولا قليل.

أما عن التعليل في تفسير هذه الحقائق في الخلق المصري، فذلك ما لا أخال المناخ والطبيعة الجغرافية إلا قد تدخلت فيه إلى حد كبير؛ فالمرح والاستبشار من طبيعة الجو المشرق والصراحة في انبساط السهل. والدعة والتنظيم والعقائد في ميزة الاستقرار والتأمل.

ويسجل التاريخ بهذه المناسبة كيف أن أفلاطون، تلميذ سقراط – أبو الفلسفة في العالم – هجر بلاده إلى مصر، بعد أن طرده قومه من الإغريق لتطرفه في عقائده، ليعلم الفلسفة لأبنائنا وأجدادنا، فأذهله ما شاهده عليهم من تضلع في هذا الفن، عاد بعده – كاسف البال – إلى قومه وبلده ليعاود الدرس والبحث فيه من جديد.

وقد سجل أفلاطون هذه المحادثة فيما كتبه من تعاليمه، واقتبسه في وضع أسس جمهوريته المثالية الخيالية، حتى اقتصر فيما اقترحه لهذه الجمهورية من فنون.. على أن تكون مصرية – بالنص الصريح – بل لقد عدد الكثير من مزايا هذه المصرية في إعجازها الذي بلغ في تصويره حد خيال.

على أن غزوتين – بلا ريب – تركتا أثرهما الواضح في تقاليد مصر وعقائد أهلها، وأعني بهما الغزوة العربية التي نقلت إلينا أصول الإسلام، وقواعد الدين الحنيف.. والغزوة العثمانية فيما خلفت للمجتمع المصري من تقاليد لا يزال أثرها باقياً في حياتنا اليومية حتى الآن.

ويلاحظ على الغزوتين معاً تفرعهما عن أصل مشترك هو الدين الذي نقله العرب، ورعاه خلفاؤهم من آل عثمان. وإن كان ذلك لا يعني – بالطبع – أن غير العرب والعثمانيين من الغزاة والفاتحين لم يتركوا أثراً على الإطلاق في مصر. والدليل قائم فيما يخالط الكثير من السجن المصرية، بل والأجسام أيضاً من ملامح أجنبية، إغريقية، أو لاتينية، أو آسيوية، أو إفريقية لا موجب للشبه بينها وبين الملامح المصرية الأصيلة. ولكن غير العرب والأتراك، وإن تركوا في حياتنا بعض الأثر، إلا أنهم أخذوا عنا – في الغالب – أكثر مما نقلوا إلينا. وذلك يفسر ما وصف به المؤرخون الطبيعة المصرية من أنها طبيعة مؤثرة، غير متأثرة فأخلاق الغرب وعاداته، وتطوراته الفكرية المنقولة إلينا، لا تعدو والحالة هذه أن تكون مصرية في جوهرها، تشكلت بلون البيئة التي نقلت عنا إليها، ثم

عادت إلينا مرة أخرى في ثوبها الجديد، لتدل علينا بما زودناها من عناصر القوة والحياة.

ينقلني هذا إلى الكلام عن الطابع المصري في جمال نسائنا، وفيما طبعن عليه من عادات، ومدى تأثر هذه العادات بالتقليد في حياتهم الخاصة، سواء في البيت أو في المجتمع.

الجمال المصري

والجمال المصري من أنجح ألوان الجمال في العالم بلا ريب، وميزته في وضوحه، وسرعة تأثيره، واتصاله بشغاف القلوب على الفور! وهو في حد ذاته جمال هادئ.. قريب – على حد تعبير الشعراء! – ولكن في فتنة طاغية تتسلل إلى أعماق القلوب، في رقة النسائم، فتملكها دون أدنى مقاومة!

وإذا كانت السمرة الدافقة، والحيوية المرحة، والرقة الهادئة بعض مشابه المصرية "بالماؤورية" و"البولونيزية" من ساكنات "جزر الهاواي" وباقي "جزر المحيط الهادي"، فعلى المصرية – دون أولئك جميعاً – طابع المدنية المهذبة، والعصمة في الخلق، والاحترام الذي يطالع محدثها لأول وهلة من خلال نظراتها الوجلة المستحيية. والخجل في طبيعة المصرية ميزة أخرى، تقربها من قلوب الرجال، وتثير فيهم الأماني والآمال، وهو لا ريب، بقية من طبيعة البيئة وحكم الأجيال.

ومن أجمل ما يثير الإعجاب في المصرية توفرها على فن النكتة وإجادتها إلى حد يعجز دونه الكثير من الرجال، تلك الميزة التي جعلتها أقرب إلى رفع الكلفة، واحتلال موطن الصدارة، في كل مجتمع تحل فيه، سواء في مصر أو في الخارج.

والسحنة المصرية تمتاز – إلى ذلك – بطول الوجه، ونحوله، ودقة الأنف، وسعة العينين، ووضوح التقاطيع، وبروز الوجنات، على صورة محببة غير مبالغ فيها، وقصر الجبهة، والشعر الداكن الذي يتراوح ما بين الكستنائي والأسود. وهي ملامح في جملتها لا بأس بها، ولكنها لا توحي بالامتياز بالنسبة إلى مقاييس الجمال في الشعوب الأخرى.

وعلى هذا أستطيع أن أقول أن جمال المصرية، في جمال روحها، قبل أن يكون في دقة تكوينها أو حسن خلقتها. أو بمعنى أصح فإن مقدرة المصرية على الغزو تتركز في لسانها وثغرها، وعينيها! فإذا أقدمت على استعمال هذه الفاتكات، فما على الرجال إلا أن يخلوا الطريق، ويقنعوا من الغنيمة بالإياب!؟

أما عن الأجسام، وما يكتنفها من معايب ومنفرات فذلك ما أترك تفسيره إلى موضع آخر من ذلك البحث. وإن كنت أبادر إلى أن أسجل هنا ما حازه جمال النادر من الأجسام المصرية الصميمة، إلى جوار جمال الوجه، في مسابقة الجمال العالمية، التي فازت فيها ممثلة مصر "السيدة شارلوت واصف" منذ حوالي عشرة سنوات، ومعروف استناد

الحكم في مثل هذه المسابقة إلى مقاييس وأبعاد ونسب لا تتوفر عليها من بنات الجنس اللطيف إلا من كانت كاملة من جميع الوجوه.

بقي أن أقول أن هذه الأوصاف لا تشاهد بين المصريات إلا في الشاذ النادر من الأحوال، بين طبقات خاصة جداً من المصريات اللاتي لم تختلط تقاطيعهن أو دماؤهن بأي ملامح أجنبية، ومن حسن الحظ أن تكون ملكة جمال العالم المصرية "شارلوت واصف" واحدة من بين هؤلاء، ولا شبيه لها – على أغلب الظن – إلا في الأسر القبطية الصعيدية من بقية الفراعين!

أما اللون الشائع من ألوان الجمال عندنا فيغلب عليه أحد الطابعين العربي الآسيوي، أو التركي المغولي. وإن بدت في العواصم ألوان أخرى من الجمال الغربي، أعمها الفرنسي ثم بقية الأجناس الأخرى بلا استثناء تقريباً.

ومعنى ذلك – إذا تركنا ناحية الغزو الجنسي – أن التقاليد والعادات الأجنبية قد وجدت مرتعاً خصيباً في أرضنا، وعلى رأسها العربية والتركية. فإلى أي مدى تأثرت نساؤنا بهذه التقاليد؟

التقاليد المصرية

لست أدري ما إذا كانت هذه العبارة قد باتت تدل على معنى حسي ملموس في حاتنا المصرية؟

ولعمري لكي نحكم على ذلك الحكم الصحيح فإنه يتعين علينا أولاً أن نتعرف على ما هو مصري من عاداتنا وتقاليدنا، ثم ننظر بعد ذلك إلى مدى تأثر هذا المصري بما يخالف طينته أو طبيعته من العادات الأجنبية، في الماضي والحاضر معاً.

ويلزمنا يقيناً للوصول إلى المصري الأصيل من العادات والتقاليد، أن نلقي نظرة عابرة على مركز المرأة في عهد الفراعنة، وما تميزت به في ذلك العصر من مميزات في حياتيها الخاصة والعامة.

وجدير بي أن أؤكد في هذه المناسبة أن المرأة المصرية قد تبعت مصير رجلها في مختلف الحوادث والعصور، وظلت في محيطها الخاص رهينة بما يتمتع به رجلها من حرية أو ما يعانيه من جور، حتى قيل أن أحد الولاة الظالمين – في عصور الاستبداد – حرم على المصريين أكل الملوخية، وعلى النساء لبس الأحذية!.. ولست أدري بعد ذلك أية مناسبة بين الملوخية وأحذية النساء! إلا أن تكون وحدة المصير هي تلك التي جمعت بين المصريين والمصريات فيما فرضه ذلك الخليفة – الحاكم بأمر الله – على الجميع من قسوة خيالية!؟

المرأة الفرعونية

ينقل إلينا التاريخ فيما نقله من أخبار هذه الفترة المشرقة من تاريخ مصر، أن المرأة تمتعت باستقلال في كيانها أو اعتراف رسمي بشخصيتها في ذلك العهد. وإذا كانت الوقائع المسجلة فيما تركه الفراعنة من آثار

تؤكد وجود ملكات من الجنس اللطيف في ذلك العهد. فقد روت هذه الوقائع نفسها ما يؤكد – من جهة أخرى – أن ولايتهن مثل هذا المنصب الخطر لم تكن تقليداً معترفاً به في سجلات الأسر الملكية المصرية القديمة، وإن ظروفاً خاصة هي التي أباحت هذا الخروج على ما كان متواضعاً عليه في هذا الباب من قصر المناصب الرسمية وغير الرسمية، وجميع أنواع الأعمال العامة على جنس الرجال في تلك الحقبة من التاريخ.

على أن ذلك لا ينفي بالطبع ما توفرت عليه المصرية من احترام وتقدير في محيطها المنزلي الخاص في هذه الفترة، ولا ما خلفت من آثار ملحوظة في الحياة الاجتماعية، تبعاً لما كان يلحق بشخصيتها من احترام في كل مكان.

ولعمري إذا أردنا المقارنة بين مركز المرأة المصرية في عهد الفراعنة ومركزها الآن لدى البقية الباقية من الأسر القبطية العريقة في أقصى الصعيد، لما وجدنا خلافاً كبيراً بين مركزها في الحياتين، البعيدة الغابرة.. والمدنية الحاضرة.

الدين عند المصرية

وأعمق ما يصادف الباحث بعد ذلك من الصفات الأصلية في طبيعة المصرية هو توفرها على العبادة ومخافة الله، بشكل أكثر وضوحاً من الرجال، وإلى مدى يبلغ أحياناً حد الخرافة والخيال!

وإذا كان الاعتراف بوجود حياة أخرى، وعالم آخر – غير الحياة والعالم الملموس – حقيقة لم يجهلها الفراعنة، وقد تمشت في الدم المصري على تعاقب الأجيال والأديان معاً. فلم يكن غريباً على المرأة المصرية – وهي السجل الأمين لمجريات الحوادث في مختلف العصور التي مررنا بها – أن تحفظ هذا الطابع المميز من معالم الحياة المصرية، في مسلكها وما لا نزال نشاهده عليها حتى الآن.

وأعتقد شخصياً أن هذه الميزة في طبيعة المصرية قد حفظت كيانها بعض الشيء خلال تعاقب الأجيال ووقفت بمنزلها وعاداتها وتقاليدها، وبالتالي بالمجتمع المصري جملة، وإلى حد كبير، في وجه ما تعرض له ذلك المجتمع من عوارض وتقلبات.

على أن ركن المبالغة – وهو ركن له أهميته في طبيعة المرأة إجمالاً في كل عصر ومكان – قد لحق بهذه الناحية الفاضلة في حياتها فشوَّه من جمالها إلى حد يدعو إلى النقد؛ فلم أجد في الدين الحنيف، ولحمته وسداه، اليسر دون العسر ما يشير إلى إيجاب الصوم على الحبالى في أشق متابعهن، ولا على من لم يبلغوا العاشرة من الأطفال.

وما لي أذهب بعيداً وهذه إلا صرخة ومخلفات الأولياء، لدى المسلمات والمسيحيات جميعاً، دليل قائم على ما وصل إليه عند المصرية من خرافات بلغت حد الإيمان بالخزعبلات!

ومما يؤسف له في هذا الباب أننا –كشعب لا يؤمن بالأوساط! – نجد إلى جوار أولئك المتزمتات.. المتهجدات، طبقة أخرى من المستهترات ممن يطلقن على أنفسهن زوراً اسم الطبقة "المودرن" لا يعترفن أصلاً بالتقاليد الدينية، ولا بالصوم أو الصلاة! وأترك التعليق مؤقتاً على هذه الطبقة، ومركزها الشاذ في مصر، إلى مناسبة أخرى في هذا البحث، لأستأنف مناقشة العادات الأصلية في طبيعة المصرية، على رأسها الحجاب.

دولة الحجاب

هذا العاتي الجبار، قد أذل أعناق المصريات حيناً طويلاً من الدهر، فلم يتحررن منه إلا منذ نيف وربع قرن من الزمان تقريباً بعد دعوة قاسم أمين المعروفة لتحرير المرأة في مصر، ولا يزال طابعه الآخذ بأسباب الاضمحلال والزوال، ملحوظاً في كل ناحية من مناحي الحياة المصرية حتى الآن.

وقد شهدت مصر المواقع الأولى لمصرع ذلك المارد العنيف في سني الثورة المصرية الأولى – عام ١٩١٩– عندما خرجت المصرية إلى الساحة مبرقعة، وسارت بجحافلها الحاشدة بألوان "الحبر" و"القصب" في المظاهرات التي شملت كافة الأوساط، في سبيل المناداة بالحرية والاستقلال في ذلك الحين.

وعندي أن هذه الخطوة لم تأت مفاجأة، ولا دفعة واحدة، حيث سبقها التفكير في تعليم المرأة بأكثر من نصف جيل.

كما أن الحجاب، في طريقه إلى الاحتجاب، لم يختف كلية من الحياة المصرية حتى كتابة هذه السطور، ولا تزال "الملايات اللف" و"الطرح" و"اليشمك" بعض آثاره القائمة عند كثير من الطبقات، من مختلف المراتب الاجتماعية في مصر.

ألوان من الحجاب:

وما دمت بصدد الكلام على ألوان الحجاب في مصر، فلا بأس من أن أقدم للقراء بعض الصور لما شهدته، ولا تزال الغالبية من المصريين تشهد بوجوده، من ألوان ذلك الحجاب في مختلف الأصقاع المصرية. ويجدر بي أن أشير هنا مقدماً إلى كون هذه الألوان في تعارضها وتدرجها من الحجاب الكامل نحو السفور، على حسب تطور البيئات في مختلف المناطق المصرية، تشتمل على مناطق نفوذ في سيطرة كل لون بعينه من ألوان ذلك الحجاب.

"البردة": فهذه مثلاً يقتصر نفوذها، وبالتالي انتشارها على أعالي الصعيد، من وادي حلفا إلى جرجا.

"الشقة": وتلك ما بين القبطيات والمسلمات من سيدات مديرية أسيوط وما حولها.

"الشقرية": ومحيط انتشارها ما بين سيدات مصر الوسطى: المنيا وبني سويف والفيوم والجيزة.

"الملاية اللف": وتعرف في القاهرة وعواصم الوجه البحري.

"الملبس": وهو منتشر في قرى الوجه البحري، وما بين عرب القطر المصري في مختلف أماكن وجودهم، ولا يختلف عن "الشقرية" إلا في التسمية.

وتستوي هذه الألوان من الحجاب جميعها في اشتمالها على قطعة واحدة من قماش أسود – في الغالب – يلف لابسته من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، بحيث لا يتبين من خلفه شيء من ملامح مرتديته ولا تقاطيعها، فيما عدا "الملاية اللف" التي تشتمل عند الوجه على قصبة، وبرقع يتولى شد النصف الأسفل من الوجه تحت العينين، وهي أكثرهن انتشاراً حتى الآن، ما بين الطبقات الفقيرة وعواصم الوجه البحري – كما قدمت – ومن أجل هذا اعتبرها بعض الأجانب – عن خطأ بالطبع – لباساً قومياً للمصريات.

أما بقية ما أشرت إليه من ألوان الحجاب، فلا يميزه عن بعضه إلا اختلاف نوع القماش – أو لونه أحياناً – على حسب المناطق، والتسمية، والمرتبة الاجتماعية.

"فالبردة" في الغالب من صوف غنم، أسود أو أحمر، على حسب المرتبة الاجتماعية بالنسبة للابستها، وبديهي أن الحمراء تصنع على الأيدي، ولا تتكلف صباغة. أما "الشقة" فمن قماش أسود براق – أملس في الغالب – أما "الملاية اللف" فمن قماش أيود من نوع خاص، يطلق عليه "الكريشة" مصنوع من القطن أو الحرير، على حسب المرتبة الاجتماعية لصاحبته. وأما "الملس" فيشترك بدوره في سواد اللون، ولو أنه يكون في الغالب من الحرير، ومثله الشقرية. وتتميز الفلاحات في الحقول المصرية – في كل مكان – بلون آخر من ألوان الحجاب، لا يزال منتشراً بينهن حتى الآن هو "الطرحة" وتقتصر مهمتها على تغطية الرأس والكتفين، من فوق رداء طويل يبلغ القدمين، ولا تظهر من تحته إلا "البلغة" التي تنتعلها صاحبة هذا الرداء.

والطابع المميز لأردية هذا العصر – فيما عدا الحجاب الخارجي – يتضح من كثرتها وانتفاخها – فوق بعضها – وفرط طولها، وما يتعلق بأذيالها من ذؤابات، أو جرارات، يتلهى الأشقياء من الأطفال بتعليق الحصى والأحجار بين فتلها! ولهذا النوع من الأردية شبيه عند العرب، لا بد أن شعراءهم قد عنوه بقولهم:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

أما "اليشمك" وأما "الطرحة آلا ترك A la tutque فأردية تركية صميمة، في نزعتها ودلالتها.. بل وتسميتها، وإن كانت الأخيرة قد لعبت

دوراً في تطور الحجاب المصري في طريقه إلى الزوال ما بين الطبقات الإسلامية الخاصة، إلى جوار "الحبرة" التي عاصرت هذا الدور في تطور ملابس المسيحيات من المصريات، في طريقهن نحو السفور الكامل. ولا يختلف "اليشمك" عن "الطرحة ألا ترك" بدوره كثيراً، في المظهر الخارجي، من حيث اقتصار كل منهما على تغطية الوجه والرأس، فيما عدا أن "اليشمك" يشتمل على لفافة تعصب حول الرأس وتتدلى من حولها غلالة شفافة من قماش ثمين تشتمل الوجه وتلف حول الرقبة، ولا تزال الطبقات الإسلامية المصرية، التركية الرفيعة، تعتز بهذا اللون من ألوان الحجاب حتى الآن.

أما "الطرحة آلا ترك" فغلالة رقيقة حول الرأس، وترخى على الكتفين، فوق الفساتين العادية بحيث لا تخفي شيئاً تقريباً من تقاطيع لابستها. ولا تختلف "الحبرة" عنها تقريباً في نوع القماش، الذي يبدو ثقيلاً غير شفاف في طرحة الأخيرة واشتراط طول الفساتين من تحتها إلى ما فوق الحذاء مباشرة.

تلك صورة من الظلمة التي حجبت المصرية حيناً من الزمن عن الوصول إلى مكانها اللائق بها في المجتمع المصري. ولا تزال بقية من ظلالها تتردد فيما قدمت من أزياء لا يزال بعضها باقياً حتى الآن في بعض المناطق المصرية البعيدة التي لم تبلغها موجة السفور، وبين بعض الطبقات الجاهلة التي تؤثر فيها ريح المدنية الغربية الآخذة بأسباب الانتشار.

في ظل الحجاب

لا يملك المؤرخ العادل – إذا تعرض لوصف هذه الناحية المظلمة من تاريخ المرأة المصرية – إلا أن يعجب ويتملكه الأسف والأسى، لما وصلت إليه الإنسانية في معاملة هذه المخلوقة الرقيقة دون ما ذنب أو جريرة. ومهما قيل عن تدليل المرأة في ذلك الحين، وأنها كانت تذهب إلى منزل الزوجية مصحوبة بدادتها أو جاريتها، وبقرتها، وكلبها أو قردها – لتسليتها – فالثابت الذي لا مرية فيه أن موقفها من سيد هذا المنزل – زوجها – أو أمه – ربته الأولى – لم يكن يختلف كثيراً عن موقف تلكم الجارية، أو البقرة، أو القردة.. منهما، أو منها!؟ فلم يكن لها مندوحة إذن عن اصطحاب هاته المسليات لتثبتها أشجانها لتخفف عنها بعض ما قد تجده من قسوة أو جفوة في ذلك المحيط الغريب، بل الرهيب.

ويبدو طابع هذه الفترة فيما انتقل إلينا عن حوادثنا من الأمثال التي لا تزال تتردد على ألسنة الكثيرات من المصريات، والتي تشبه منزل الزوجية بالقبر! – "البيت وأفعاله، زي القبر وأحواله!؟ – وفي ذلك إشارة لا تخفى على ذكاء القارئ اللبيب، إلى صاحب ذلك التشبيه الغريب من اعتبارات.

وعندي، لم تكن تختلف أساليب الوداع للعروس التي تنتقل إلى بيت زوجها، عن مراسم الدفن لعزيز فارقنا إلى أعلى عليين؛ فتلك الأم،

وأولئك الشقيقات يبكين وينهنهن وهن يودعن عروسهن، في طريقها إلى عالم المجهول! بل أن زيارة الأم لبنتها العروس لم تكن من التقاليد المعترف بها لدى الخاصة من الطبقات.

ولا تزال هذه الفئة تجاهر حتى الآن، بأن أشرف ما يصون سمعة المرأة – بعد الزواج – هو ألا تفارق هذا المنزل إلا إلى القبر! عندما يدعوها خالقها إلى جواره.. ولكل أجل كتاب!

أما كيف يتم الاختيار، وبالتالي كيف تتعرف الفتاة على سيد أحلامها وصاحب سجنها، فذلك ما لا بد أن يسجله التاريخ بالخزي والعار.. فمن يدفع المهر الغالي أولاً، هو صاحب السبق في الشاة البريئة التي لا يعرف لها رأي. وإذا تساوت المهور فالخيار لصاحب السلعة والد العروس، أو ولي أمرها من عصبتها، على حد سواء.

ثم ماذا أيضاً؟ بعد أن تنتقل هذه المسكينة إلى سجنها الأزلي!؟ إن عليها أن تتعرف على رغبات رب الدار، وذويه وعلى رأسهم والدته – صاحبة الأمر والنهي في كل كبيرة أو صغيرة فيه – والويل لها، ثم الويل! إذا أغفلت واحدة من هذه الرغبات، فما أسرع التقارير! بل ما أقسى ما تتركه مثل هذه التقارير، على جسد هذه الدابة العزلاء، من آلام.

أما عن النظام ودقته، ومظهر الزوج – أو الرب – وصرامته؛ فحدث ولا حرج! فهذه الشرفات المقنعة ذات المشربيات، فيما خلفته

لنا آثار ذلك العهد من آيات باقيات، شواهد ناطقة على ما لاقته المرأة خلف هذه الأسوار من صنوف الذل والاستعباد.

وماذا يبقى بعد ذلك! إن الحقائق المؤيدة تنطق كلها بأن الحكم كان للرجال وحدهم، مهما صغر شأنهم أو سنهم؛ فالطفل إذا بلغ حلمه لن تبقى لدى أمه أية مقدرة على حكمه، فلا يسكنها، ولا يؤاكلها أو يشاربها، لأنها تبقى في نظره مظهراً من مظاهر الحريم!! وهو له الخيار في أن يأخذ بقولها ونصحها، أو يضرب بهما عرض الحائط، إلا إذا صادفا هوى من نفسه، كما لو تزوج، وأوقع سوء الطالع زوجته في حبائل أمه. هذه القسوة التاريخية، لها شبيهة في بعض ما وصل إلى علمنا من أخبار المجتمعين العربي والتركي في هذه الفترة المظلمة من تاريخ الشرق.

وإن كان الأصح من الأوضاع بالنسبة للمجتمع المصري، أن حجبنا وتقاليدنا، قد شابهت حجبهم وتقاليدهم، مع شيء من التخفيف في جانبنا؛ فكأن قسوتهم وصرامتهم قد جاءتا ضغثا على نسائنا.. ولو أن الواقع يؤكد في هذا المجال أن الأسرة المصرية الصميمة – حتى خلال هذه الفترة – قد بقيت محتفظة بتقاليدها – الشبيهة بالفرعونية – مع الاعتراف بالحجاب، ولعمري تلك ميزة الوحدانية التي تفردت بها الطبيعة المصرية منذ ظهورها على وجه التاريخ.

ومعنى ذلك أن مصر قد شهدت في تلك الفترة حجابين متميزين، أحدهما مصري النزعة فرعوني التقليد، والآخر تركي أو عربي، على ما بين النوعين من فارق في القسوة – في الأخير – والتخفيف في الأول.

ومن عجب – بعد ذلك – أن المصرية – كشبيهاتها، من الشرقيات – بقيت متمسكة بما حررها منه السفور من حجاب، وتقاليد ثقيلة، إلى أمد قريب بل إلى الآن، عند بعض الأسر التقليدية، التي لم تعترف بعد التطور ولا بالتحرر، في بعض جهات مصر العليا البعيدة.

وقد لاحظت بهذه المناسبة أن القاهرة وبقية مصر السفلى، كانت أقرب – دائماً – إلى التأثر بالغزوات والمدنيات المتعاقبة..

من تقاليد الزواج:

ويعجب من يلاحظ هذه التقاليد وتطورها – منذ فجر التاريخ – في مصر.. حتى الآن. فقد كان الفراعنة يبيحون زواج الشقيق من شقيقته، ثم جاءت تعاليم المسيحية، وأعقبتها تعاليم الإسلام، محرمة هذا النوع من الزيجات فماذا كان موقف المصريين والمصريات من هذه التطورات؟

استبدل بالشقيق أبناء العمومة، وذوو الأرحام من بعدهم، وذلك ما لا زلنا نشاهده، على معظم الزيجات القائمة في الأسر المصرية الباقية. وإذا كان العلم يؤكد ضعف ما ينتجه تعاقب مثل هذه الزيجات فقد أثبت التطور في الطبيعة المصرية عكس ذلك حيث نجد في العقليات المصرية

الصميمة الباقية.. عبقريات لم تتأثر بحكم هذه النظرية في شيء اللهم إلا ما يشاهد على أصحابها من رقة ونحول هي العبقرية في الجنس! أو سمها ما تشاء..؟ ولكنه الواقع الملموس على كل حال.

الطبقات في مصر

ينقلني هذا مباشرة إلى نظام الطبقات في مصر، وهو باق ما في ذلك من شك، وإن بدأت حدته تطامن من كبريائها قليلاً تبعاً لتعاقب الحوادث والأجيال. ولعمري لكي نتمكن من التمييز بين هذه الطبقات، يتعين علينا أولاً أن نفرق بين ما هو مصري، وغير مصري من هذه الطبقات، ولكل مراتبهم الاجتماعية التي تبدأ بالأرستقراطية، وتنتهي بالطبقة الدنيا أو العاملة، ولكن أيضاً تقاليدهم وعاداتهم ومسحتهم الظاهرة، في مختلف الحوادث الاجتماعية. ولن يجد القارئ واحداً من الأولين – بمختلف طبقاتهم – في غمار الحياة الاجتماعية السائرة بلا ريب، حيث لا يزال أولئك يعيشون في الظلال، ظلال الماضي البعيد الذي لا تزال أصداؤه تتجاوب في أنفسهم، وعاداتهم وطريقة حكمهم على حقائق الأمور في بعدهم عما يخالف طبيعتهم من مظاهر المجتمع القائمة.

وأظهر ما يميز هذه الطائفة المتفردة في مصر، كبرياؤها العميق الذي يبدو لأول وهلة على طريقة أهلها، في المعاملة، والحديث. وهو

كبرياء غير متعمد، ولا خاف – في نفس الوقت – ولكنه كبرياء الأجيال، ونزعة السيطرة في الطبيعة المصرية الخالدة.

وعندي أن هذا اللون في الطبيعة المصرية الباقية، هو الذي شكل نظره الشعوب، بل والأجيال.. لشعبنا.. أو بالمعنى الأدق، لنسائنا، فميزهن – في نظرهم – على بقية نساء الأرض بالصلف والكبرياء.

وهذه الأسطورة إذن ليست خيالية، مادام لها دليل في طبيعتنا الباقية، وإن كان من الشطط، أن نعتبرها في كافة نسائنا طبيعة غالبة على أن بقية المصريات لا تنقصهن المسحة المصرية المتكبرة، وإن اختلطت هذه المسحة فيهن بالتركي، أو العربي أو غير هذين من التقاليد، التي لا تعترف للمرأة بهذه الكبرياء، في قسوة أو في هوادة على حسب مقتضيات البيئة.

وجدير ألا أغفل هنا لها أهميتها وأثرها الباقي في تطور البيئة المصرية الحالية، وأعني بها الشرف، أو العرض، وكافة ما يتفرع عن هذين الأصلين في التقاليد المصرية الباقية؛ فلا يكاد يمر علينا يوم – في مصر – دون أن تطالعنا الصحف المحلية بحوادث تحتل فيها هذه الناحية أبرز مكان سواء في القاهرة أو في الأقاليم، وعلى الأخص منها أقاليم الوجه القبلي البعيدة.

وإذا نظرنا إلى تاريخ كلتا الأمتين العربية، والتركية، لوجدنا لهذه الناحية في تقاليدنا، وصرامة خلقنا، مشابه عندهم تتناهى إلى حد ما وصل إليه الأمر في العصر الجاهلي عند العرب من وأد البنات.

في تاريخ مصر حادث يؤكد هذه الناحية فيما ورد من قتل "شجرة الدر" بالقباقيب في حمام قصرها. بأيدي خدمها وعبيدها..! وهو حادث إن دل على شيء – في نظري – فعلى تأصل هذا الخلق على مر الأجيال وعدم اقتصاره عندنا على أهل طبقة دون طبقة.

وعلى ذكر الطبقات، فإن من ينظر إلى تاريخ مصر، في الفترة السابقة على التفكير في تحرير المرأة مباشرة، فإنه يجد انعكاس ما لاقاه الرجال من معاملة في دنيا النساء.

ويجدر بي أن أشير هنا مقدماً إلى أن مصر قد عاشت في هذه الفترة من الزمان في ظل طبقتين اثنتين، لا ثالثة لهما، الأولى من الأشراف والعلماء، من أصحاب الحظوة عند الولاة. والثانية من العامة، سواء فيهم طبقة الموظفين أو الطبقة العاملة. ومعاملة المصرية، من مجموع هذه الطبقات، لا تعدو في مجموعها ما كان يلاقيه أصحابها من الرجال، في المحيط العام من تدليل أو خسف.

وبالتالي فقد كانت ربيبة القصور، من صاحبات الطبقة الارستقراطية في هذا العصر، لا تعدو في نظر رجلها حد كونها دمية، أو تسلية، أو متعة... نسبة إلى ما كان يلاقيه أصحاب هذه الطبقة من الرجال من

تدليل الولاة، لحاجتهم إليهم في كبح جماح الجماهير وتصريف شئون البلاد.

أما عن الطبقتين الأخريين، فلا سبيل في وصف حالتيهما الاجتماعيتين من تقدير الولاة، أوضح مما لاقته المرأة على أيدي رجال منهما من عسف.. بلغ بها مرتبة الدابة، التي تعمل لتأكل ويأكل رجلها إلى جوارها.. رقيق أو في مرتبة الرقيق، وما كان أن يدعي بأكثر مما يتمتع به سيده من الحقوق.. في أي عصر من العصور.!

تلك ملامح التاريخ في الأنثى المصرية، ولن تجد أية صعوبة في التعرف عليها في خلق المصرية الحاضرة التي تمشي فتتعثر في مشيتها، وتتقدم فتنظر خلفها – في تقدمها – دون مبرر أو داع، وتظهر حيناً ثم تحجب سمة الخجل أو الحياء، أو التردد أو الخوف، أو أية تسمية أخرى فإنه لن يعدو في تفسيره حد ما قدمت من سمة الأجيال في عدم الاعتراف بشخصية المرأة، واعتبارها مجرد متاع – في نظر رجلها – إلى حد قريب.. مع تفريق الاعتزاز بذلك المتاع ووضعه في إطار من الذهب أو من القش، حسب اختلاف صاحبه، ونصيبه من التقدم.. أو التأخر، في المرتبة الاجتماعية، في العصر السابق للنهضة الأخيرة.

أثر الحجاب:

بعد ما قدمت من مظاهر الحجاب المتعددة في مختلف مناحي الحياة المصرية، السابقة على النهضة، أخال القاريء لن يجد أية صعوبة

في تفهم ما أدت إليه هذه الحالة في المرأة الحاضرة؛ فتلك التي لم تكن تنتقل من بيت جارتها أو صديقتها أو أمها، إلا ملتحفة هودجاً كاملاً من الأدوية والأحجبة، يتبعها حارس موثوق بأمانته عند سيده – صاحب هذه السلعة العجيبة!– لم يكن من حقها بالطبع أن تذهب إلى المدرسة لتلقي العلم، وبالتالي فقد كانت الظلمة في كل مظاهرها طابع هذا العصر، في كل ما يمس المرأة من قريب أو بعيد.

بل أن الانتقال من مكان إلى مكان في حد ذاته، كان جريمة تقف دونها التقاليد الصارمة، لا لشيء بالطبع سوى ما يؤدي إليه مثل هذا الانتقال من استعدادات وتكاليف. وأعرف من بين جداتنا القريبات من عاشت طول حياتها لا تعرف عتبة الدار، ولا تعرف أن في الوجود حياة ولا دنيا غير التي تعيش فيها.

كان البيت إذن هو كل شيء في حياة المرأة، في ظل والدها أو زوجها – قبل الزواج وبعده – وكان بديهيا أن تصطنع المرأة في هذا الجو المقفل المسليات والمحجبات، فالمسألة لم تكن موضعاً لخيار. وخلف هذه المملكة من الشيش والأسوار، وكان عليها إذن أن تتذوق هذا اللون من ألوان المعيشة بكل ما فيه من حلاوة أو مرارة، وإن كان أغلب الظن عندي أنها لن تلاقي فيه شيئاً من الحلاوة.

ومن هنا انتشرت في المجتمع المتقدم علينا مباشرة طائفة السميرات التي بدأت باستخدام الجواري، اللائي كن يستخدمن في إدخال السرور على نفوس سيداتهن من ربات الخدور والقصور.

وتطورت هذه الطائفة إلى فئة "الدخالات" اللائي احتللن موضع الفئة السابقة من السميرات، وكن يتخيرن من بنات الطبقة المتوسطة والدنيا، ومن هنا في طبقة التابعات لربيبات القصور المشار إليهن، ويطلق على هذه الطائفة التي لا تزال آثارها موجودة في بعض مدن الصعيد "الأشابين" بعد أن تطورت مهمتهن إلى خدمة الطبقة الأرستقراطية الرفيعة في المواسم والحفلات والأعياد، وعلى الأخص الزيجات والمآتم، حيث يتولين تقديم المشروبات إلى الزائرات، في هذه الصالونات التي لم تعرف غير الجنس اللطيف حتى الآن.

وإذا كنت قد أشرت سابقاً، إلى عدم إباحة التعرف على الزوج قبل الزواج، فقد كانت هذه المهمة من حق سيدات الأسرة – في غير الأحوال التي يبلغ حكم الرجل فيها درجة البت باختيار فلان بعينه لأنه أقرب أبناء العمومة، أوسر أعيان البلدة أو تجارها – كان يباح في مثل هذه الأحوال للأم والشقيقات المتزوجات، وغير هؤلاء من بنات العم أو الخال اختيار العروس التي تناسب عريسهن.

ثم تطورت هذه الحالة إلى اختصاص طائفة معينة من سيدات الطبقة المتوسطة بالتوفيق بين كل رأسين في الحلال! وظلت هذه الفئة

من "الخاطبات" تتوفر على الاحترام الطبقي في الأقاليم، نسبة إلى الحرص على اختيار أهلها من أسر بعينها – وإن لم تبلغ في الاحترام مدى ملحوظاً، إلا أنها كانت معروفة لدى المجتمع في تلك الأيام – ثم فقدت هذه المهنة شرفها، بعد أن انزلقت إلى حد الاحتراف، حيث أصبحنا نشاهد في هذه الأيام من القائمات بها، بل والقائمين عليها.

العجب العجاب!

وما زلت أذكر حادثاً له أعمق الأثر في نفسي حتى الآن، فيما وقعت فيه جارة – لا تنقصها الثقافة للأسف الشديد – أخبرتني بأن واحدة من بين أولاء "الخاطبات" استولت منها على مبلغ خمسين جنيهاً نظير الحصول لها على عريس ابن ناس – على حد قولها – ثم ذهبت المحتالة، وذهب العريس، والمبلغ طبعاً في خبر كان. وأعجب من هذا ما تركته هذه الجارة نفسها، لدى انتقالها إلى منزل آخر، من أثر لا يمحى! فقد حدثتني من خلفتها في شقتها بأنها وجدت بين مخلفات سلفتها زوجاً من الحمام، تحت جناحي كل منهما حجاب! والحجاب بالطبع لجلب العريس الذي أخفقت الخاطبة المحتالة في العثور عليه؟!

ينقلني هذا مباشرة إلى عالم الخرافات والأحاجي الذي لا يزال المجتمع المصري يعاني من جرائه حتى الآن للأسف الشديد؛ فالمصرية المتحضرة – بكل ما وصل إلى ذهنها من ألوان المدنية الغربية – لا تجد

أي مانع من الشكوى لزوجها بأنها "منزارة" – أعني أن عليها "زاراً" – وتفصيل هذا أو تعليله لا يحتاج في نظري إلى ذكاء، أو كبير عناء.

فمن راجع الصور الباقية على آثارنا المصرية القديمة يجد في احتفالات قدماء المصريين بموتاهم شيئاً يقرب من مظاهر حفلة الزار التي لا يزال المجتمع المصري يشهد بوجودها بين أرقى الطبقات للأسف الشديد.

وعندي أن هذه الظاهرة المحزنة لا تدل في مصدرها، ووجودها، إلا على الترف، والتدليل الذي لجأت إليه المصرية في عصور الظلمة لقضاء الفترة الفارغة من وقتها، في صحبة لفيف من صويحباتها، للتسرية عن نفسها وعنهن، والتنفيس عما عانينه جميعاً من الكبت، والبعد عن مظاهر الحياة الاجتماعية وألوانها المتعددة التي كانت قصراً على جنس الرجال.

ولقد أدت هذه الفترة من تاريخ الحجاب إلى مظاهر أعجب وأغرب في تقاليد المصرية؛ ففي الأسرة المتيسرة، أو الأرستقراطية، كانت تعيش ربة القصر ما بين مجموعة من الجواري والعبيد، تتلهى بتعذيبهم في أوقات فراغها الطويلة، ولعمري لم تكن هذه الظاهرة فيهن إلا أثراً من قسوة حكم الرجال عليهن.

وما زلنا نرقب في المصرية الحالية قسوتها البالغة على خدمها – أو على خادمها الوحيد – بعد انتهاء الرق، وزوال معالمه نهائياً من كافة

أنحاء الوجود، فتمارس بذلك السيطرة التي حرمها الرجل من تذوقها. ومن هنا نستطيع أن نعرف تعليل تطور مشكلة الخدم في مصر وندرتهم، وعدم استدامتهم في خدمة أي منزل من المنازل المصرية السائرة.

واحتجاب المرأة عن الرجل، واعتبارها سائمة تباع وتشترى قد أدى في هذا المجال إلى إشكالات جمة يقصر عن تعداها القلم؛ فغلاء المهور أحد هذه المشاكل الباقية للأسف حتى الآن، والتي تقف حجر عثرة دون الكثيرين من الراغبين في الزواج. والعلة بعد ذلك عند المتمسكين بهذا التقليد الذي لم يبق ما يبرزه في حياة يشترك فيها الرجل والمرأة معاً في الآونة الحاضرة.

والحجاب نفسه ملحوظ في بعض الأسر الصعيدية التي لا تزال تصر على منع نسائها عن مقابلة الراغبين في الزواج، رغم إباحة الشرع الحنيف في أقصى صوره، الاطلاع على الوجه والكفين من العروس في مجتمع لم ينقصه القسوة في التقاليد، وأعني به المجتمع العربي الذي نزل فيه القرآن.

ماذا أيضاً عن "البلانة" و"الماشطة" وما ظللن يراعينه في المصرية المتحجبة حيناً من الدهر، في مراعاة جسدها وشعرها، وشتان بين أماكن يقمن عليها في هذا الباب وبين مهمة الكوافير في تزيين السيدات عند الغربيات..!؟ هي المرأة في كل مكان ولكن الفارق في الأسلوب الذي يحمل طابع العصر والمدنية بلا ريب.

ولا ريب أن أثر هذه الفترة يتعدى إلى أكثر من ذلك، مما يلاحظ في جسد المصرية نفسها واكتنازها، وترهلها واحتياجها إلى أكثر من قائد لمصاحبتها في الطريق الوعر.

وإذا رجعنا إلى الشلت المصرية التي لا تزال بروتوكولاً محفوظاً في بعض الأسر الممتازة، لوجدنا في ذلك التعليل الأدنى لهذه المعيشة التي لا تمت إلى الرياضة أو النشاط الذهني أو الجسدي في شيء.

يقيناً لقد فقدت المصرية معظم ميزاتها التاريخية في تلك الحقبة من الزمان، ولا تزال للأسف تتعثر في مواجهة النور الجديد الذي بدأ يشرق عليها، من خلف النهضة النسائية القائمة، فالشخصية النسائية معدومة في صالوناتنا، بين الخائفات الوجلات من ارتياد محيط يجهلن عنه كل شيء تقريباً. بل أن أثر الجهل يكاد يعلن عن مواضعه في كل ناحية من حياة المصرية الذهنية، ورعايتها لشون نفسها، وبيتها زوجها، وأولادها، ومن كل ما يمسها عن قرب أكثر مساس.

عواطف مصرية:

لكاتب هذه السطور في هذه الناحية رأي يخالف كل من سبقوه في الكتابة في هذا الباب، وقد بنيت رأيي على المشاهدة قبل أي شيء آخر، وعندي أن كل ما يقال عن حرارة العواطف المصرية إن هو إلا هراء لا يستند إلى الواقع في شيء. وإلا فبماذا نفسر تقديس المصرية لأولادها، وإهمالها لشئون زوجها!

وهل هذا الإهمال في أسر بنيت على الحب، بل على العشق والهيام المتبادل بين الزوجين يعتبر دليلاً على قيام دولة العواطف في عالم الجنس اللطيف في مصر، وقوتها أن صح لذلك وجود!؟

بل بماذا نفسر فشل معظم الزيجات المبنية على أساس خالص من الحب المتبادل.. آجال تتراوح في طولها إلى بضع سنوات أحياناً، وما منيت به من هذه الزيجات من تلف سريع في بدايتها، وقبل تأصلها، وأحياناً قبل تمامها؟ يقولون أن المصرية لا تجيد رعاية المحسنات التي تحبب بيتها لرجلها، وهذا حق.

وإنها لا تعني بجسدها ولا بزينتها، ولا بمظهرها، أو حتى بمجرد اختيار الألفاظ في حديثها مع هذا الزوج. في الوقت الذي تضع فيه هذه الزوجة نفسها كل همها في مراعاة الطلاء الخارجي، بكل مقوماته، لكي تظهر أنيقة، رقيقة، مهذبة في المجتمع الخارجي الذي لا تعرف عنه، ولا يعرف عنها شيئاً تقريباً، وهذا حق أيضاً؟

ولكن هذا الإهمال مهما بولغ في وصفه أو في تعداد مظاهره، أو في تعليله: طوراً بالجهل، وآخر بالكبت، وثالثاً بالحقد على ما سلف من دنيا الرجال في حق الجنس اللطيف، في سني الظلم والإذلال المتعاقبة؛ فإن كل ذلك لا يبرر في نظري إهمال العواطف وبرود المواقف التي لا تستقيم بغير النيران المشبوبة والحب المتقد في دنيا العواطف، وهذه

للأسف – إن وجدت – فقوامها التعمل والصنعة، فيما لا يغني عن العاطفة الأصيلة فتيلاً.

كم من عاشق مدله قضى جل أوقاته في تخيل المحبوبة، والوقوف بعتبتها، وتعداد محاسنها، وترديد الأنغام الثائرة في نجوى غرامه العاصف، ثم انتهى به كل ذلك إلى الاصطدام بالواقع الذي لا يشوبه الزيف من أن في معشوقته النزعة المادية المتأصلة في كل مصرية، والتي تقف بها – إذا انتقل الحب إلى مجال الواقع – عند حد الحساب والأرقام والملموسات..

هل هو قصور في الخيال؟ لا أظن.. فما كالأرض المنبسطة في سهلنا ما يقوى ملكات التصور والخيال في كلا الجنسين اللذين يعيشان على أرض مصر. هل نعتبره قصوراً في الجنس؟ وما الداعي لهذا القصور..؟ جونا حار.. وإن كان أميل إلى الاعتدال.. وفي ذلك من الحوافز الجنسية ما يكفي!

وعجينة المجتمع المصري الحاضرة، فيها – كما قدمت – التركي والعربي، واللاتيني، والسكسوني.. وغير ذلكم من مختلف الدماء التي اختلطت بالدم المصري.. على أرض النيل.. فجنسنا لا ينقصه التطعيم.. أو القوة، في لغة أهل الطب، ومراعي التطور في الأجناس أو القوة، في لغة أهل الطب، ومراعي التطور في الأجناس.

إذن؛ فبماذا نعلل هذا القصور العاطفي في جنسنا اللطيف؟ أعتقد – مع الاعتدال في التصور أن صور الكبت المتتالية فيما بينت من حياة المصرية في عصور الحجاب، تحمل الدليل الذي نبحث عنه.

وبالتالي لكي نكون مفهومين لدى أصحاب الدراسات النفسية، فإن طبيعة المرأة المصرية في عصر الحجاب، كان ينقصها عامل السيطرة الذي أشرت إليه عابراً في بعض ما قدمت، وهذا العنصر الجبار الذي له أهمية في حياة كل مخلوق من الجنسين، يفسر لنا في أوسع نطاق الصور المتتالية الشائعة لما يطلق عليه زواج المنفعة في المجتمع الحاضر فقد ملت المصرية ذلك النوع من الاسترقاق الجنسي الذي كان يعتبرها مجرد متاع في عصر الظلمة، وبدأت تطلب الكيان المستقل والشخصية الكاملة اللتين لما تصل إليهما بعد؛ فهي تتحايل للوصول إليهما بكل وسيلة، مستعينة بكافة غرائزها كامرأة في الحصول على هذه الميزة رغم أنف الرجال، وبمساعدتهم في نفس الوقت.

ولعمري إذا لم تتمش مع ذلك التعليل المنطقي المعقول، فلنرسل أنفسنا وتصورنا حتى مداهما في الاتجاه العكسي. وليتقدم لنا من يملك الدليل، بحالة واحدة.. في غير الشواذ كان الزواج فيها نتيجة مثمرة للحب المتصل المتبادل، وأقصد بالإثمار هنا، أن يظل الحب طابعه المميز في كافة أدواره.

والتاريخ أصدق مرآة بعد ذلك، وهو أن وقف عند حد المرعيات في الحديث عن خفايا المجتمع الحاضر، فلا ريب أن في أعيننا وآذاننا الكفاية في تسجيل كل ما يخرج عن المألوف، وهو في هذا الباب، وجود غرام قوي، تعدى الحدود، وحمل طابع الإنكار للذات، والتفاني في شخص المحبوب، وهو ما لا ريب ستضحك منه المصريات طويلاً وترمين صاحبته بالغفلة والعته. ولهن في ذلكم لعمري كل حق، ما دمت المقاييس في نظرهن، قد اتجهت فعلاً إلى الجانب المادي.

لست أطالب بقيس وليلى جديدين، أو روميو وجولييت، ولكن كل ما أطلبه هو المعيار. فهل الحب معيار في تقدير المصرية، أو بالتالي أساس ثابت من أسس اختيارها لزوجها؟

أما هذا السؤال الصريح لا أعتقد واحداً من الجنسين في مصر يستطيع أن ينظر الواقع الملموس من أن المصرية قد نبذت دنيا العواطف إلى غير عود، أو إلى عود غير قريب، وإن استوى الحكم في الحالتين؟!

ولعمري إذا أنكرنا الحقائق الملموسة في مجتمعنا فهل نأتي بأسانيد خارجية من خارج الحدود، أو بمعنى من غير المصريين؟!.. لقد كتب أخيراً أحد الفلسطينيين في جريدة مصرية معروفة ينعي على المصريين قصورهم في شغل مناصب الوزارة والحكم دفعة واحدة، أو بالمعنى الأصح جملة، وبغير استثناء.

وانتهى الكاتب الساخر في ختام كلمته إلى أن توفر المصريين جميعاً – بغير استثناء – من دنيا الرجال، على مناصب الوزارة والحكم.. أو بالتالي على الجاه والفخفخة والسلطان، جدير أن يفك أزمة الزواج في مصر.. ويحمل نساءنا المتكبرات المتعنتات على ترك التردد في اختيار الأزواج، والإقبال عليه غير خاشيات ترديهن في حفرة لا يراهن من خارجها المجتمع الذي يتحرقن شوقاً للظهور فيه، بحق أو بغير حق!

ذلكم ما سجله عابرة في طريقه، عن طبيعة نسائنا، فيما سماه كبرياء، وأعتبره أنا سيطرة، أو على الوجه الأصح مركب سيطرة، تأصل في طبيعة المرأة المصرية.. وهو على هذا الأساس إذن شيء لا يمس كبرياء المصرية الأصلية، التي لا تزال تشرف على مختلف الحوادث الاجتماعية من برجها العاجي.

الأسرة المصرية:

وأراني مضطراً إلى أن أعود مرة أخرى في هذه المناسبة إلى نظام الطبقات في مصر الآن بعد القضاء على الحجاب. ولست أخال الطبقتين الثانية والثالثة – المتوسطة والدنيا – اللتين تداخلتا في الفترة السابقة أيام الحجاب – إلى حد كادت معه كل منهما أن تفقد ملاحها ومميزاتها، إلا قد استقلتا من جديد، وبدأت كل منهما ترى النور بمنظارها الخاص، ومن خلال عاداتها وأفكارها وتقاليدها الخاصة. وهذا ما يعدد ألوان الأسرة المصرية في المجتمع القائم.

وإذا كانت الفروق بين الطبقتين الدنيا والمتوسطة قد بدأت تظهر وتتضح في المجتمع الحالي، فمرجع هذا – في نظري – لعوامل اقتصادية وتطورية في نفس الوقت.. حيث بدأت الصناعة تزدهر في مجتمعنا إلى الحد الذي أنشئت من أجله النقابات.. هذا إلى جانب تطور العجلة الحكومية واتساع مرافقها لعدد أكبر من أبناء الطبقة المتوسطة، مما جعل لكل الطبقتين الثانية والثالثة في المجتمع المصري خطرها الذي يتضاءل من دونه خطر الطبقة العليا التي بدأت تفقد بدورها معالمها المميزة في غمار تداخلها في بقية الطبقات، وبخاصة بعد قيام الحربين العالميتين المتتاليين، بما نتج عنهما من رفع الكثيرين من أبناء الطبقتين الدنيا والمتوسطة إلى عالم الثروات في مجتمع مادي، كل ما يميز أصحاب اليد الطولي فيه المظاهر الجوفاء والعنجهية الفارغة التي لا تستند إلى أكثر من الفخفخة والمغالاة فيها إلى حد إيهام أصحاب الجيوب الخالية والعقول غير الناضجة وجود أشياء لا تستند إلى واقع من حسب أو أصل.

ويساير تفاضلاً في الثروات، والقدرة على الوجه الأصح. انعكاس آخر فيما أشرت إليه من تطور نظرة المرأة إلى رجلها المفضل في الناحية العاطفية.

ولعمري لقد أدت زيجات المصلحة التي أصبحت الطابع المميز للعصر الحاضر، إلى القضاء على البقية الباقية من الفروق التقليدية بين

الطبقات ودرجاتها في المجتمع الحاضر والتي احتلت ركناً له أهميته في المحيط المصري حيناً من الزمن.

لم يبق إذن ما يمنع الصانع والعامل والفقير، إذ أدركه عصر المادة الذي يقف حائلاً بينه وبين ما فوقه من الطبقات. إذا تيسر له الحصول على هذا العنصر، من أن يقتحم طريقه إلى الطبقة المتوسطة، فالعليا، بكافة ما يميزها من مظاهر ومقتضيات في المجتمع القائم.

وهذا التطور في نظام الطبقات في مصر، يتبعه تطور آخر في التقاليد، وتداخل ما بين المكتسب والأصيل منها لدى مختلف الطبقات، مما كاد يفقدها جملة عنصر الوحدة التي ميزتها بعضها عن البعض الآخر في المجتمع السابق. ومن هنا أصبح من الصعب على من لا يتبع الأصل وتطوره أن يعطي ملامح مميزة لتقاليد كل طبقة في مصر، بما يحول دون تداخلها في تقاليد الطبقة الأخرى.

وقد تبع هذا التداخل ما بين الطبقات وبعضها، من أثر تعقد النظام الاقتصادي في المجتمع الحاضر، تطور آخر فيما دخل على تقاليدنا المصرية من ملامح أجنبية نقلتها إلينا الصور المتتابعة التي وصلت إلينا من ملامح المجتمعات الخارجية – سواء منها الأوروبية أو الأمريكية، منذ قيام الحربين المتاليتين، وتقدم صناعة السينما، بما تنقله من صور حديثة للحياة الاجتماعية في الخارج، وكثرة البعوث، والرحلات إلى خارج القطر من بين بعض الأثرياء والمترفين من مختلف الطبقات في مصر..

أدى كل ذلك إلى حلول عادات أخرى بمجتمعنا سرعان ما تلقفتها المرأة المصرية المتشوقة إلى كل ما يفك عنها أسارها، وما يربطها بعالم الظلمة والجهالة الذي تخلصت منه وشيكاً، ولما تزل تجاهد لتستبدل به عالماً آخر، تستوفي فيه حريتها، وما تطلبه من حقوق في النيابة والحكم.. إلخ!

على أن المصرية التي لم تستوف نضوجها بعد – للأسف – لم يتبين طريقها على الوجه المرغوب، فبدأت تتخبط على ما يبدو، وتقتصر فيما اقتبسته من هذه المدنيات على قشور ليست من هذه المدنيات بالطبع في شيئ، ولا هي مما يلائم طبيعة الخلية المصرية من الناحية الأخرى.

ولدي في هذا الباب أدلة لا تحصى أتركها إلى حين الكلام عن ملامح النهضة النسائية الأخيرة وما خلفت في نسائنا من الآثار.

ضوضاء وضجيج:

ولست أحب أن أترك هذه الناحية قبل أن أشير إلى بعض الظواهر المكشوفة في البيت المصري، بل في المجتمع المصري على وجه الإطلاق، وأعني بذلك الضوضاء المتواصلة في كل ناحية من أنحاء الحياة المصرية؛ فالباعة المتجولون لا تحلو لهم المناداة على سلعهم إلا في وقت الظهيرة – بعد موعد الغداء – أو في الصباح المبكر أو المساء المتأخر، وكأنما هم على موعد، أو في حلبة سباق، أو ميدان اختبار

لمقدرتهم على رفع أصواتهم إلى مداها، وبعضهم يضيف إلى اسم سلعته بعض الأزجال أو المواويل مغالاة في استرعاء انتباه السامعين.

وهذه الضوضاء نفسها في الدواوين، بمناسبة، وبغير مناسبة وفي الصالونات، وعلى الأخص ما يشتمل منها على الجنس اللطيف.

وقبل كل ذلك، أو فوق كل ذلك.. في البيت، حيث تسمع السيدة تنادي على خادمتها، وكأنها تستنجد بالبوليس، أو تطلب تدخل المارة في الطريق العام لمساعدتها على استدعاء الخادمة المشار إليها.

والأطفال كذلك، في مختلف درجات طفولتهم، أو صبيانيتهم، لا يقعدون عن البكاء، أو العويل، أو الصخب والضجيج! حتى في المرح والسرور، لا يحلو استمتاع الطفل أو الصبي إلا إذا رفع صوته إلى أقصى مداه..

أما عن المدارس، ما يلاقيه الأساتذة المساكين فيها في حفظ النظام فحدث ولا حرج فنصف أوقات الدروس إن لم يزد، مضيع في تنبيه هذا وذاك إلى التزام السكون، ومراعاة حرمة العلم..

حتى دور العبادة، لا تخلو من هذا الضجيج! فما العلة؟ لا ريب إن هذه الظاهرة – إذا رجعنا إلى تعليلها النفسي – دليل على المرح الذي يخالط الطبيعة المصرية فيما أشرت إليه سابقاً، بل إن هذه الظاهرة بعينها لم يخل منها شعب من الشعوب المحيطة بحوض البحر الأبيض

المتوسط، وللمناخ فيها دخل كبير بلا ريب، حيث نجد المناطق المعرضة لظواهر جوية أو طبيعية شاذة من نوع الأمطار المتوالية، أو البراكين أو الزلازل أو ما أشبه ذلك من الوقوع وسط بحار أو جبال أو صحراء من جميع الجهات، تحفظ طابع السكون الدائم، الانخفاض في الأصوات، والهمس في الحديث، أو بمعنى أصح الرهبة الدائمة المخيمة على كل شيء في هذه الأقاليم.

وإن كان للأصوات المصرية والصخب المصري، التفوق في كل مكان على ما عداه من أنواع الصخب والضجيج في البلاد المشابهة بل إنني لا أكون مغالياً إذا قلت إنني في معظم البلاد الأجنبية التي مررت بها، كنت أتعرف على أمكنة وجود المصريين من ارتفاع أصواتهم، وما يحيط بمجتمعاتهم في الخارج من صخب دائم.

على أنه مهما قيل في تلمس الأعذار للضوضاء وأثرها في البيت بما ينفي الراحة عن ساكنيه ويحول بينهم وبين الإنتاج الذهني المنظم على أية صورة، فبماذا نعلل الفوضى في طبيعة سيداتنا الفضليات، وعدم عنايتهن بمنازلهن العناية التي تحبب فيها رجالهن، وتحول بين أولئك وبين الهرب إلى المقاهي ودور اللهو البريئة وغير البريئة؟

لست أغالي يا حضرات القراء، ولا أنقل إليكم حقائق عن التبت والهيمالايا! فجلكم أزواج.. أو أشقاء.. أو متفرجون على أقل تقدير!؟ وقد رأيتهم بأعينكم زوجاتكم، أو شقيقاتكم، أو بناتكم تشتمل عليهن

الحيرة، ويفترسهن الإعياء. في البحث وراء الجورب الذي تركته بالأمس في مكان ما. بالمنزل، ثم عدن للبحث عنه فلم يجدنه، والفستان نفسه موزع بين مناطق تختلف في مزاج ربة البيت المصون باختلاف ساعات الليل والنهار، وعدة التواليت تارة في موضعها، وأخرى في دولاب الملابس، أو بين مخلفات الأثاث الأخرى!؟

وليت الأمر يقتصر عند هذا الحد؛ فالطعام الذي يتناوله رب البيت المسكين، تارة من صنع ربة البيت، وأخرى من صنع الظروف بما يدخل في هذه الظروف من احتمال احترافه أو اختلاطه بمواد غريبة مما يدخل في طائفة الطعام بحال، أو فقدانه بعض هذه المواد. هذا بالطبع إذا تنازلت ربة البيت بالإشراف على اطعام أسرتها بنفسها، فهذه المهمة في الغالب من واجب الطباخ أو الخادم سواء كانت لهما به دراية أم لا..؟

وجدير أن أشير هنا إلى أن للمصرية مقدرة فائقة، واستعداداً طبيعياً لصنع كافة ألوان الطعام.. فقط إذا عنيت بهذه الناحية، ووجه مقدرتها في هذه الناحية مركز في "سبكها" لكافة ألوان هذه الأطعمة، وهي ناحية تتعلق بذوق المصرية المشهود له في هذا الباب بين كافة الشعوب؟

والواقع أن كبرياء المصرية، أو مركب النقص في طبيعة المصرية على الوجه الأصح، يأنف بها أن تنزل إلى مرتبة الخدم في العناية بطعامها وزوجها وأولادها، أو كافة ما يتعلق بها أو بأولئك في غير ناحية الطعام؛ فالبيت نفسه لا يتخذ هنداماً مقيماً، ليبقى عليه.. إلى أكثر من بضع

ساعات في اليوم.. وربما في الأسبوع.. أو الشهر على حسب المناسبات.. أو على الوجه الأصح على حسب مواعيد استقبال الأضياف في هذا البيت. وكأنما كتب على هذا البيت ألا يعرف النظام إلا في حضرة الغرباء وليس لأهله وساكنيه على ربته فيما عدا ذلك أية حقوق.

أشرت إليه منها، من انفضاض الأزواج عن بيوتهم، وبالتالي عن زوجاتهم، وشيوع الفوضى بين الأبناء في التفكير والعناية بأنفسهم ومستقبلهم.. وأخيراً ما يعم البيت المصري على وجه الخصوص، والمجتمع كله على وجه العموم من فتور وقصور، في مختلف النواحي الاقتصادية والخلقية والاجتماعية.

الأمومة والطفولة:

هي طفلة على أصح تقدير لا يتعدى سنها التاسعة من العمر، وقد رأيت أبويها في محطة نيويورك.. وقد حضرا معها لتوديعها.. حيث بقيت معي في القطار إلى محطة سان فرنسيسكو، على مسيرة أربعة أيام بقيتها هذه الطفلة إلى جواري دون أن يبدو عليها الملل أو التعب أو الخوف، وأغلب الظن أنها كانت مسافرة إلى مدرستها في هذه المدينة، حيث لا بد لها أن تقضي بقية العام الدراسي في منزل غير المنزل، بل وفي بلد يبعد مسيرة أربعة أيام عن البلدة التي يقطن فيها أبواها وبقية أشقائها وأهلها.

ومع ذلك فإنني أستطيع أن أقسم أن الوالدة، وهي تودع طفلتها الصغيرة في هذه الرحلة البعيدة نسبياً لم تبك، ولم تولول، ولم يبد عليها الجزع، ولم تخر قواها فتسقط مغشيا عليها لدى تحرك القطار. وأغلب الظن بل وأستطيع أن أؤكد – طبقاً للروح التي شهدتها في الأميركيات – أنها عادت من هذا الوداع العادي تتأبط ذراع زوجها فخورين بما ينتظر ابنتهما الصغيرة من مستقبل دراسي باهر..

أما عن الرحلة – رحلتي أنا بالذات – التي صحبتني فيها هذه الصغيرة فلا أستطيع أن أقول إنها حملت من معاني الترف شيئاً يذكر.. حيث أنني كنت في معظم رحلاتي أراعي مقتضيات الاقتصاد على الوجه الأقصى. فلم يكن بالعربة التي سافرنا فيها شيء من الاستعداد للنوم – الذي لا يوجد – في غير العربيات الفاخرة الغالية – وكان على فترات النوم المتتالية.. خلال هذه الأيام الأربعة أن أسند رأسي بيمناي، وكذلك فعلت الطفلة؛ مما يدل على اخشيشانها، وعدم ميلها – أو أبويها في معاملتها على الوجه الأصلح – للترف.

نقلني إلى هذه الصورة منذ بضعة أسابيع، حادث دعيت لاتخاذ موقف الحكم فيه بين أم وزوجها من المقيمين بالأرياف حيث يعمل الزوج، وقد شب ابنهما الذي بلغ السن التي لا بد فيها من الالتحاق بمدرسة ابتدائية، فاضطر لإلحاقه في بداية هذا العام الدراسي بإحدى المدارس الأميرية بالقاهرة.. ومضى أسبوع وشهر وثالث، وكاد العام الدراسي أن ينصرم، والأم ما زالت مصرة على أن تبقى إلى جوار ولدها

الذي تعدى السابعة من عمره.. لأنه "يا حسرة ما يقدرشي ينام بعيداً عن أمه".. "لماذا يا سيدتي؟".. "بيخاف!؟" أي نكبة يمكن أن تحل بهذا الزوج المسكين وبقية أولاده في غياب ربة البيت التي تصر على أن تحتضن طفلها – الذي بلغ السابعة! – في سرير واحد حتى لا تحوم حوله الأشباح والعفاريت وكافة الخزعبلات التي تزرعها الأم المصرية في ذهن طفلها منذ ولادته!؟

وهل تتصورون لمثل هذا الطفل إذا ما شب، وبلغ مبلغ الرجال أن يصلب عوده، ويمتن خلقه، ويتخلص من تدليل، بل من خزعبلات أمه بشكل يضمن له النجاح في المستقبل.. وأن يشق طريقه بنفسه بين الأشواك، أو حتى بين الورود والرياحين؟

لقد بلغت العناية بأمر التربية الاستقلالية للطفل في بعض التشريعات الأجنبية – وفي جملتها القانون الإنجليزي – حد النص على تحريم نوم الأم مع طفلها منذ ولادته، وشهدت الأمهات الأجنبيات لا يتدخلن في مرح أطفالهن أو حتى في جدهم، فلا يعطين المشورة لأولئك الأطفال في أي شيء، وتقتصر مراعاتهن لهم على حد منعهم عن إيذاء أنفسهم أو غيرهم؛ فيشب الرضيع بذلك معتمداً على نفسه في كل صغيرة وكبيرة.. فماذا لدينا من كل ذلك في مصر؟

يبقى الطفل عندنا يتمتع بلبن أمه حتى الثانية من عمره، وربما تعدى ذلك القدر.. ولا تلمس قدماه الأرض حتى يبلغ الرابعة أو الخامسة،

وربما زاد على ذلك.. وينام إلى جوارها في فراش واحد حتى يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة. فإذا بلغ مبلغ الرجال وحق عليه تلبية داعي الوطن بالانخراط في سلك المجندين فيا ويل أبيه إذا لم يحصل له على بدل الإعفاء من هذه الخدمة الاختيارية – للأسف الشديد – في مصر.

ولعل الكثيرين من القراء استمعوا واشتركوا في تردد الأغاني الريفية التي اشتركت ولا تزال في الموكب القومي المتخاذل من نوع "بلدي.. يا بلدي! والسلطات خدت ولدي!؟" أو "يا أمي ليه تبكي عليه.. وأنا رايح الجهادية!؟".

ولماذا بربكم تبكي الأم على أن يكون من صلبها رجل يذهب إلى الجهادية.. ويحمل السيف لكي يكافح عن وطنه.. ويدافع عن شرفه.. وشرف أمه وذويه!؟

ولكن هكذا تشاء الأم المصرية، بل والمشرع المصري نفسه الذي أباح هذه السبة في جبين القومية المصرية والشرف المصري إلى ما لا يعلم.. إلا علام الغيوب!

ولعمري إذا بحثنا في مشاكل تعدد الزوجات، وعدم تحديد النسل في مصر، فضلاً عن الأزمة الاقتصادية العامة، وبعد الفوارق بين الطبقات عندنا، لوجدنا الأسباب الصحيحة لخطورة هذه المشكلة عندنا إلى الحد الذي لا تبلغ إلا خطورتها في الهند الآن.

انتهينا إذن في تدليل الطفل المصري إلى حد انتزاع أمه اللقمة من فمها وإيثاره بها، ولو لم يكن في حاجة إليها! فماذا عن هذه الأم نفسها وعنايتها بنفسها كأم؟

الجواب بلا ريب عند أولئك اللائي عبدن أطفالهن إلى الحد الذي فقدن معه كل ميزة للحياة فيما عداهم، فلا جسد المصرية بعد الولادة يحمل طابع الأنوثة، ولا رشاقتها هي الرشاقة قبل هذه العملية الشاقة، ولا حميتها نفسها بمنجى من الأمراض والأوجاع بعد سني العناية، بل العبادة لهذا الطفل المدلل. هل هو الحنان؟ أم الجهل؟ أم هما معاً؟؟ أعتقد أن الأخير هو أقرب الفروض إلى الصحة!

النهضة النسائية:

بدأت هذا البحث بسؤال تركت الإجابة عليه إلى ما بعد المشاهدة والمناقشة والتحليل عن السبب في "تأخر الاعتراف للمصرية بالحقوق السياسية حتى الآن؟" وأراني الآن مضطراً إلى تقديم إجابة غير مباشرة، في مراعاة النهضة النسائية في مصر وتطورها، وما داخلها من عناصر أخرت هذا الاعتراف إلى ما لا يستطيع تحديده من الزمن.. إلا حكيم مقتدر في هذه الظروف بالذات على الأقل، ليفصل فيما لم تفصل فيه الحوادث المهيمنة على تطورات الزمن، والتي قد تتعجل هذا الاعتراف، أو تقف به سنوات أخرى – لا أستطيع تحديد مداها – تبعاً لتطورات هذه الحوادث المقبلة.

وعندي، إذا كان قاسم أمين قد نادى بتحرير المرأة منذ حوالي الخمسة وثلاثين عاماً، أن هذا النداء لم يكن أول صوت ارتفع في مصر في سبيل تحرير المصرية والقضاء على دولة الحجاب عندنا، فقد سبقت هذا الصوت أصوات أخرى نادت بوجوب هذا التحرير، وتقدمت على دعوة قاسم أمين نفسها، من مجال الأقوال إلى حد الأفعال بالاعتراف لهذه المخلوقة نفسها عملياً بالتمتع بالنور والاغتراف من مناهل العلم، منذ بدأ تعليم المرأة في مصر منذ حوالي المائة عام تقريباً.

ولقد أعقبت حركة قاسم أمين وصاحبتها في نفس الوقت، دعوات أخرى، وتطورت في مصر والشرق، بل والغرب أيضاً، هي التي مهدت السبيل لهذه الدعوة لكي تنتج نتاجها المأمول..

ويبدأ التفكير في تحرير المرأة في العالم قاطبة منذ تحرير الرقيق، ومما يؤسف له حقاً أن هاتين الحركتين التحريريتين جاءتا متلاحقتين متعاقبتين من أثر تطور الفكر العالمي، وميله نحو العدالة في جانب أضعف المخلوقات التي هضمتها البشرية حقوقها فيما سبق، وفي جملتها المرأة..

وقدد صاحبت هذه الحركات الفكرية الإنسانية، تطورات أخرى اقتصادية في الجانب الديمقراطي الذي لا يزال يشق طريقه نحو التقدم والذيوع، حتى كتابة هذه السطور.

ويقيناً لقد خدمت الحربان العالميتان المتواليتان، دنيا المرأة، بما أدتا لها من خدمات مباشرة، فيما نلاحظه على تطورات الفكر العالمي السريعة نحو الاعتراف لها بالمساواة مع الرجال، بعد هاتين الطفرتين.

ولا ريب أن البشرية قد أحست بحاجتها إلى هذا الجنس الذي يمثل نصف العالم الإنساني، وخدماته واشتراكه العملي في التقدم الإنساني، بعد الانخفاض الملحوظ في نسبة مجموع الرجال بعد الحربين المشار إليهما. وهنا نشأت فكرة التحرير، أو على الوجه الأصح بدأت تتخذ الخطوات الأخيرة نحو إبراز هذه الفكرة إلى حيز الوجود. وقد سجلت الحرب العالمية الأخيرة على وجه الخصوص اشتراك المرأة اشتراكاً عملياً في مجهود الحرب وإنتاجه.

وكافأتها الدول الديمقراطية، التي خرجت ظافرة من هذه الحرب بالاعتراف لها بكافة الحقوق، في كل ناحية من أنحاء المعمورة، ووجوب مساواتها بالرجال في كل شيئ، وهي المبادئ التي قررها مؤتمر سان فرنسيسكو، وأقرتها الأمم المتحدة وفي جملتها مصر، كما قدمنا.

ويلزمني أن أعرج هنا على نصيب المرأة المصرية من هذه الخطوات، والواقع أنها لم تشترك في الحرب الأخيرة على أية صورة، اللهم إلا في مجال العبث واللهو الذي عم بعض الطبقات الحقيرة، ممن شاعت على أقلام بعض الكتاب الساخرين في مصر تسميتهن "بأرتست الحرب"

فماذا عن ميادين الجهاد الأخرى؟..لم يسجل تاريخ المصرية اشتراكها في واحد من هذه الميادين إلا مرة واحدة في عام ١٩١٩، يوم خرجت المظاهرات النسائية "بالحبرة" و"القصب" فيما أشرت إليه سابقاً.

تعليم المصرية:

أما عن التعليم وبدء إباحته للمصريات، فذلك ما يرجع تاريخه إلى حوالي قرن من الزمان. وقد بدا في تلك الفترة متقطعاً مكروها لا تقبل عيله إلا فئة صغيرة من بين الطبقات الفقيرة التي هي – في العادة – أقل تأثراً من غيرها بالإشاعات والأقاويل. ولا تملك المقدرة الكافية – في نفس الوقت – على إرسال بناتها إلى مدارس الجاليات الأجنبية الغالية الأجور، والتي بدأت عملها إلى جوار إرسالياتها التبشيرية في وقت معاصر لبدء السماح بتعليم المرأة في مصر.

وقد بقيت هذه الإرساليات ومدارسها حتى الآن تؤدي نفس المهمة – للأسف الشديد – دون مراعاة للشعور القومي، أو احترام لعقلية الغالبية من المصريين. وما زالت تلاقي – رغم ذلك – نفس الإقبال – بل والتهافت – من بعض الطبقات الخاصة عندنا، التي يبدو لي أنها لا تعني بالعلم في حد ذاته، قدر عنايتها بالمظاهر والمنافسة فيها.

بل إن ما بيدي – كرجل من رجال التعليم – من المعلومات الواثقة، يؤكد ضعف المستوى العام في هذه المعاهد إلى درجة لم تنزل إليها واحدة من المدارس المصرية، سواء منها الأميرية أو الحرة.

ومما يزيد في دواعي الأسف، في بعض هذه المعاهد، إنكارها علانية لغة البلاد الرسمية، ومؤاخذة من يضبط متلبساً بالنطق بها، من بين تلاميذها وتلميذاتها.. سواء في الأفنية أو في حجرات التدريس فيها!!؟؟

ولعمري هذا ما ترومه الطبقة الرفيعة من مدعي ومدعيات الأنساب عندنا للذين يتشرفون بجهلهم بالمصرية ولغتها وتقاليدها، وهي منهم براء بحمد الله. وما هم في غيرها مسموعين ولا محترمين. وهكذا الخوارج في كل شيعة ودين!

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى بدأت تنتشر المدارس الثانوية والابتدائية الأميرية للبنات في القاهرة والأقاليم كما كثرت المدارس الخصوصية والتسوية للبنات.

وفي عام **١٩٢٥**- بعد ضم الجامعة إلى وزارة المعارف المصرية، وافتتاحها رسمياً - بدأت طوائف الطالبات من الحاصلات على البكالوريا يفدن على مختلف كليات الجامعة؛ فغزون الآداب والحقوق والطب والعلوم - وهي الكليات الأصيلة في الجامعة - ثم التجارة والزراعة والهندسة - التي أدخلتها الجامعة ضمن كلياتها في عام **١٩٣٦** - وآخرتهن الطب البيطري التي فتحت أبوابها في هذا العام فقط للراغبات في الالتحاق، من بين الحاصلات على الشهادة التوجيهية..

وقد رغبت بعض الحاصلات على البكالوريا أو التوجيهية منذ بضع سنوات في دخول كليتي البوليس والحربية، فاحتجت السلطات المشرفة

عليهما على ذلك التعديل، وأوضحوا للمتقدمات استحالة قبول طلباتهن لخروجها على قوانين هاتين الكليتين بادئ ذي بدء، ولعدم اتفاق ما تؤهلان له طلبتهما من العمل..

اختلاط الجنسين

وقد صحب دخول الجنس اللطيف الجامعة، واختلاطه بالطلبة – في آخر مراحل التعليم – لأول مرة في تاريخ مصر الحديثة ثورات واحتجاجات من مختلف الطبقات، علا ضجيجها في بعض المناسبات حتى غطت على كثير من الأحداث المهمة في حياتنا العامة، ولا عجب فقد كنا ومازلنا قريبي عهد بتحرر المصرية من الحجاب.

واقترح بعض ممثلي الأمة يوماً في البرلمان، العودة إلى فصل الجنسين في التعليم والوظائف العامة التي شغلت بعضها المرأة وهي ظاهرة يؤسف لها بغير شك، ومثلها ما ناقشته نقابة المحامين الوطنية.. والبرلمان، بخصوص قفل جدول المحامين في وجه المقبلات على قيد أسمائهن فيه من الحاصلات على ليسانس الحقوق من الجنس اللطيف.

ومثل هذه الحركات الرجعية إن دلت على شيء، فعلى عدم استقرار الوضع الجديد. وبالتالي عدم استعداد المجتمع المصري لهضم الحركة التحريرية النسائية الآخذة بأسباب الانتشار حتى يومنا هذا.

وقد حدثني الكثيرون من طلبتي بين مختلف كليات الجامعة، فيما عانته.. ولا تزال تعانيه، بعض الطالبات بين جدران هذه الكليات من تقلبات في معاملتهن ما بين تسامح يبلغ درجة اشتراكهن في جميع مظاهر النشاط الجامعي، تصحبه روح عالية من الاحترام والتقدير، والمحافظة على مختلف الأوضاع المأخوذ بها في سائر المجتمعات التي تعمل بنظام الاختلاط، إلى قسوة تبلغ حد النفي والبعد بالجنس اللطيف عن كل نشاط يمس محيط الطلبة من الجنس الخشن، بما يضع أولئك المضطهدات في درجة هي أقرب إلى حالة المنبوذات في الهند.

وبعض هذه الكليات يتبادل التسامح والقسوة، في معاملة ذلك الجنس ما بين عام وآخر على حسب اختلاف مشارب المشرفين على الإدارة فيها ونظرتهم إلى هذا النظام بعين التوجس أو الترحيب!

ولقد وجهت بعض اعتراضات – لا تخلو من الوجاهة – لهذا النظام وطريقة الأخذ به في مصر. وبعضها صحبته اقتراحات معينة في تعميم الاختلاط وأن يكون البدء به في مرحلة "رياض الأطفال" حتى لا يبدو جو الاختلاط غريباً على الجنسين في المراحل الأخيرة للتعليم.

وإنني وإن كنت لا أرى في النظام الحاضر ما يعيبه من حيث إباحته الاختلاط في مرحلة يقدر فيها كل من الجنسين مسئولية نفسه. وإن كنت لا أنكر في نفس الوقت ما يؤدي إليه الأخذ بمثل هذا النظام، حتى مع

التحفظات القائمة، حيث لا يخلو كل نظام غير مألوف في بدايته من ضحايا.

فإنني مع كل ذلك لا أقر القائلين بالأخذ بنظام الاختلاط في مرحلتي الدراسة الابتدائية والعالية فقط، أو في الرياض والابتدائي والجامعة إن شاءوا، أو حتى في جميع مراحل التعليم فحسب؛ فيجب أن يسبق الاختلاط في مراحل التعليم، إباحة مثل هذا الاختلاط في البيت والمجتمع، ومصاحبتهما معاً.

وإلا بربكم فكيف يتفق أن يجلس الطالب والطالبة إلى مدرج واحد، فإذا خلفا أبواب الجامعة فرق بينهما "ديوان الحريم" في الترام، ونظام الحريم في البيت، وكل ما يلحقه التحريم في كافة مظاهر المجتمع التقليدية الباقية، ولو في الظاهر.

ويجدني القراء، فيما أبحث نشرة عن لساني في بعض الصحف، من أشد المتحمسين لكافة مظاهر الاختلاط في البيت والمجتمع والمدرسة، في كافة مراحل التعليم حتى نحفظ على مجتمعنا ميزة التكافؤ التي لا تتوفر بغير اشتراك الجنسين وتساندهما وتفاهمهما في كل صغيرة وكبيرة.

أما في ظل الأوضاع القائمة المتناقضة، فما أخال أحد يقر المسئولين على أننا واصلون مهما تقدم العمر أو تعددت النظريات والمقترحات، وهو ما لا أوافق عليه بطبيعة الحال.

المرأة في المجتمع

منذ زمن بعيد قامت مناظرة بين طالبتين في إحدى الكليات حول "نزول المرأة المصرية إلى ميدان العمل" راحت كل منهما تدافع عن وجهة نظرها فيها بحرارة وإيمان بلغا حد الشجار، والخروج عن حد الأقوال إلى ميدان الزغد والضرب والخرابيش!!؟ وبدا لكل متناظرة أشياع ومشايعات، ثم انتهى الأمر بتخرج المتناظرين وعملهما معاً جنباً إلى جنب وزواجهما على خلاف ما أبدته كل منهما في مناظرتها السالف الإشارة إليها من النظريات، حتى المؤيدة للاشتغال أعلنت لصديقاتها – اللائي أعرفهن – عن عجزها عن التقاعد عن الاشتغال، لا عزماً، ولا تصميماً، بل اضطراراً تحت حكم الظروف!؟

ولقد تحدثت إلى سيدة لها خطرها في المجتمع المصري، خبيرة في الاجتماعات، ومحاضرة من الطراز الأول في هذا الشأن؛ فقالت: "إن تقاعد المرأة عن العمل، إن صح في الخارج أو أجيز – وهو غير صحيح ولا جائز – فقد جرت الأجنبيات على نظام "الدوطة" في زيجاتهن، وهو نظام مالي اقتصادي قبل كل شيئ، حيث تعمل المرأة عندهم، وتظل تعمل، وتجمع ما يتوفر من عملها من مال؛ لتقدمه في وقت الزواج، إلى ذلك الذي اختارته لمشاركتها والقيام على شأنها حتى النهاية؛ فيبدأ بمبلغ "الدوطة" مستقبله فإن نجح، فبها ونعم، وإذا قدر له الفشل فليكافح وحده من جديد، ولتكن مشيئة الأقدار!

ومعنى ذلك أن الأجنبية بدوطتها تؤدي واجبها الاقتصادي في نصف حياتها الأول، قبل الزواج. وما يتبقى من القيام على شئون الأسرة – بعد الزواج – فعلى الزوج الذي يلزمه أن يحسن التصرف في مبلغ الدوطة الذي تقدمه له شريكة حياته.

أما في مصر حيث المهور المبالغ فيها التي تدعو المقبل على الزواج إلى الاستدانة، في مستهل حياته العملية في الغالب فلا محيص للمرأة عن العمل، والاشتراك عن هذا الطريق مع الرجل، في الإنفاق على المنزل الذي ينشئانه سوياً.

وتلك لعمري أصح النظريات فيما يتعلق بإباحة نزول المرأة إلى ميدان العمل في مصر، ولا يقتصر هذا القول على المدينة أو العواصم، بل هو في الغيطان والحقول، حيث الشركة القائمة فعلاً، في ظل الواقع الملموس، أشد منه صدقاً في الحاضرة والمدنية.

ولست أحب أن أترك هذه الناحية قبل أن أشير إلى مهارة المصرية ومقدرتها على ممارسة كافة الأعمال الجسدية والذهنية بما تتطلبه من جد وجلد وتركيز، وهذه المقدرة – لعمري – فيها فطرية لا أثر للاكتساب فيها، وتبدو في أبسط مظاهرها في استعداد المصرية الفائق الحد، لممارسة كافة شئون البيع والشراء، والانتصار لوجهة نظرها فيها دون كبير عناء، مما لا يتيسر لكثير من الرجال.

والصورة الأزلية لهذه المقدرة الفطرية في المصرية، تتضح لأول وهلة لراكب القطار في طريق الوجه البحري، وما يشاهده من صور القوة والجلد في ساعد الفلاحة وجهدها في شق الأرض وإنبات ثمرها، ثم الطواف بزرعها – بعد نضجه – على الأسواق. والمهارة في تلمس أسباب الكسب في اختيار المناطق والأساليب التي تعرض بها بضاعتها. هذا في الوقت الذي يجلس فيه رجلها بين أقرانه يلعب "السيجة" أو يحتسي الشاي، دون أن يعنى حتى برعاية الأطفال.

أليس في ذلكم أقوى دليل على مقدرة المرأة وجلدها وحسن سياستها؟

وقد بلغ من أمر ذيوع هذه الطائفة من البائعات، وتعدد ألوان بضاعتهن، وتدخلهن في كافة مناحي السوق الاقتصادية، أن اضطر قانون التجار الأهلي المصري إلى الاعتراف بنشاطهن "كتاجرات" يسري عليهن ما يسري على زملائهن من الرجال من لوائح وقواعد وقيود تبلغ الغاية في الدقة والقسوة.

وهذه المقدرة نفسها، المتأصلة في صميم المصريات هي التي أباحت لمن تقدمن الصفوف من بينهن تلقي العلم في الجامعة، واحتلال مواضع الصدارة بين زملائهن في بعض المراحل الدراسية.

وإن كان الثابت الذي لا مرية فيه أن طالبة العلم كغيرها من بنات حواء، لا تلبث أن تعيش في مجتمع من الرجال، حتى تتبدل نظرتها في

الحال، وتتركز كل حواسها في اختيار العريس الموعود، مهما أحاطها من ملابسات أو قيود.

وذلك ما صرح به عميد ووزير سابق في مجال عرضه لنشاط تلميذاته العلمي في الجامعة حيث أكد ما لاحظه بنفسه من فتور الروح العلمي بين الطالبات تبعاً لتقدمهن في سني الدراسة وانصرافهن – بالتالي – نحو التفكير في مستقبل حياتهن الزوجية!

وقد نجحت بعض المندرجات في الحياة العامة، على سبيل الاستئناف، وإن بقيت نظرتهن أو بمعنى أصح تطلعهن نحو الزواج، أنه هو الهدف الأسمى الذي يتضاءل من دونه كل هدف، وتلك لعمري سنة الخلق، ولن تجد لسنة الله تبديلا!

نبذة المؤلف

تخرج مؤلف هذا الكتاب في مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٩١٦. وتخصص منذ بدأ حياته العملية في تدريس الجغرافية التي حفزته إلى القيام برحلاته العلمية، وقد بلغت هذه الرحلات أربع عشرة رحلة متتابعة من سنة ١٩٢٦ إلى ١٩٣٩ يوم قامت الحرب الأخيرة.

وقد جاس في خلال هذه الرحلات العالم أجمع، وطوف بالمحيطات جميعاً، وقطع فيها ما يعادل الطواف حول الكرة الأرضية خمس مرات. وقد طاف بها فعلاً مرتين.

وقد كتب وصفاً لرحلاته طبعه في أربعة عشر كتاباً منها "نساء العالم" و"دنيا الجنس اللطيف" و"بنات حواء".

وبلغ من تقدير القراء لهذه الكتب أن أعيد طبعها عدة مرات. وإن الطبعة الأولى من "في نساء العالم" نفذت في أسبوع واحد.

وللمؤلف كتب أخرى في الجغرافية ومصورات تعليمية. أعد صورها من مجموعته الخاصة التي صورها بنفسه والتي تعد كنزاً ثميناً في عالم التصوير الفوتوغرافي. لأنها خير ما يعبر عن الشعوب المختلفة التعبير الصادق الدقيق.

الفهرس